الرحلة إلى الدار الآخرة

تأليف

ربيع إبراهيم محمد الشيخ

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعـة الأولـى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

الحمد لله الذى خلق فسوى، وقدر فهدى، وأخرج المرعى، فجعله غثاء أحوى، وأشهد ألا إله إلا هو كتب على نفسه البقاء وكتب على خلقه الفناء، فقال: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦ – ٢٧].

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، فأدى الأمانة وبلغ الرسالة، ونصح للأمة فكشف الله به الغمة، ومحا الله به الظلمة، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك... وبعد

فكثير من الناس يعيش فى هذه الحياة ولا يعرف لماذا خلقه الله؟! أو لعله يظن أنه ماجىء به إلى هذه الحياة إلا ليأكل المستطاب من الطعام، ويلبس اللين من الثياب، وينام على الوثير من الفراش .. وكفى!!

فهو يجهل الرسالة التى بينها الله تعالى حيث قال:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦ – ٥٨].

فإعمار هذه الأرض وفق المنهج الذى ارتضاه الله لعباده، هو الغاية التى خُلق الإنسان من أجلها. وأمام زخارف الحياة الدنيا ينسى كثير من الناس رسالتهم فى هذه الحياة فيظنون أن الدنيا إن هى إلا طعام وشراب، وكساء ونساء!! وكفى!!

وهذا الكتاب بينت فيه كيف يتعامل المسلم مع الحياة الدنيا؟ فيجعلها مزرعة للآخرة، كما بينت المفهوم الصحيح للزهد فى الدنيا، وقسمت الكتاب إلى خمسة فصول:

الفصل الأول: وتحدثت فيه عن الحياة الدنيا وحقيقتها، ورسالة الإنسان فيها، والمحمود والمذموم فى هذه الدنيا.

الفصل الثانى: وتحدثت فيه عن الموت وكيف أنه ليس نهاية المطاف، ولكنه بداية الحياة الأبدية التى يجنى الإنسان فيها ثمرة عمله الذى عمله فى الدنيا.

الفصل الثالث: وتحدثت فيه – باختصار وإجمال – عن تجهيز الميت، من تغسيل وتكفين، وصلاة عليه، ودفن؛ وعرضت لبعض المسائل الفقهية بإجمال دون تفصيل؟ إذ أن التفصيل فى هذه الأحكام ليس مقصداً لهذا الكتاب.

الفصل الرابع: وتحدثت فيه عن الحياة البرزخية، وما فيها من سؤال فى القبر، ونعيم وعذاب، وكيف يجعل المسلم قبره روضة من رياض الجنة؟

الفصل الخامس: وتحدثت فيه عن اليوم الآخر، فتحدثت عن مشاهده؛ ابتداءً من علامات الساعة الصغرى والكبرى، ومروراً بمشاهد البعث، والحشر، والشفاعة بين أوهام المفرطين وشبهات المنكرين، وانتهاءً بدخول الجنة أو النار.

فإن أكون قد أحسنت فبتوفيق من الله وفضل، وإن أكون قد أسأت وقصرت فمن نفسى ومن الشيطان، والله من وراء القصد وهو يقول الحق ويهدى السبيل.

المؤلف

ربيع إبراهيم محمد الشيخ

القاهرة فى الخميس

غرة ربيع الأول ١٤٢٢ هـ

الموافق ٢٤/٥/٢٠٠١م

الفصـــــل الأول

الحيـــاة الدنيـــا

* حقيقة الحياة الدنيا .
* ما أهون الدنيا على الله .
* الدنيا دار فناء .
* دوام الحال من المحال .
* الزهد في الدنيا .
* الرضا هو الزهد .
* صور من زهد السابقين .
* زهد العلماء .
* زهد الرسول ﷺ .
* التنافس على الدنيا .
* الآخرة خير وأبقى .
* المحمود من الدنيا والمذموم .
* الدنيا دار صدق لمن صدقَها .
* التزوُّد للدار الآخرة .

حقيقة الحياة الدنيا

يقول الله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف: ٤٥].

ويقول تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

وتبين الآية الأولى قصر عمر الحياة الدنيا، فهي في حد ذاتها مثلها كمثل ماء أنزله الله من السماء فاختلط به نبات الأرض، ثم إذا به سريعاً سريعاً يصبح شيئاً هشاً خفيفاً تذروه الرياح فيتناثر هباءً منثوراً ! وانتهت الحياة!! وإذا كان هذا مثل عمر الدنيا فكيف يكون مثل عمر الإنسان في هذه الحياة القصيرة ؟!

وتبين الآية الثانية حقيقة الحياة الدنيا حين تُعاش لذاتها، مقطوعةً عن الله، مقطوعةً عن منهاجه، فهي لأصحاب الاهتمامات الدنيا هدف منشود، وغاية مقصودة، فهي بالنسبة لهم لعب ولهو وزينة وتفاخر بينهم وتكاثر في الأموال والأولاد. أما الذين يعيشونها متصلين بالله، ينهجون منهاجه، فهي بالنسبة لهم مزرعة للآخرة، فهم لا ينشدونها لذاتها، ولا يقصدونها لمتاعها، ولكن كما قال القائل:

إن لله عبــــاداً فطنــــــاً   طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا   أنها ليست لحي وطناً

جعلـوها لُجَّةً واتخـذوا   صالـحَ الأعمـالِ فيها سفناً

* * *

ما أهون الدنيـا على الله !!

فقد مر رسول الله ﷺ بالسوق، والناس كنفتيه (عن يمينه وشماله) فمر بجدى أسك (صغير الأذن) ميت، فتناوله بأذنه ثم قال: أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟! فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء. وما نصنع به؟ قال: أتحبون أنه لكم؟ قالوا: والله لو كان حياً لكان عيباً فيه لأنه أسك فكيف وهو ميت؟ فقال ﷺ فوالله للدنيا أهون على الله – عز وجل – من هذا عليكم» (١).

ومن هوان الدنيا على الله – عز وجل – أن جعلها عند الكافر ولو كانت كريمة عنده لحَرمَهُ منها. يقول ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جَناحَ بعوضةٍ ما سقى كافراً منها شربةَ ماء» (٢).

وعن عائشة – رضى الله عنها – قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ولها يجمع من لا عقل له» (٣).

* * *

الدنيا دار الفناء

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤].

هذه هى الدنيا فى نظر الذين رضوا بها واطمأنوا إليها، وعاشوا لها، فهى فى أعينهم عروس مزينة جميلة، ولكن بينما هم فى نشوتهم وزهوهم بها

---

(١) رواه مسلم عن جابر – رضى الله عنه – فى كتاب الزهد (١٨ / ٩٣) – وأبو داود (١٨٤) فى كتاب الطهارة.

(٢) رواه ابن ماجه (٤١١٠) الزهد، ورواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح.

(٣) رواه أحمد.

وفرحتهم بضحكها لهم ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ﴾.

وهكذا يضيع كل شيء، وتتحطم كل الآمال، وتضيع كل الطموحات.

وهذه هي الدنيا التي يضحي من أجلها أصحابها، فهم يضحون بالآخرة من أجلها ثم إذا بها إلى الزوال والفناء.

ومن فناء الدنيا وذهابها أن كتب الله تعالى على خلقه الموت، يقول تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

هكذا.. قضى الله بالموت على الجميع... فكل نفس ذائقة الموت والفناء والزوال. فأهل الإيمان يموتون، وأهل الكفر يموتون، والذين عاشوا لله يموتون، والذين عاشوا للشيطان يموتون، حزب الله يموتون، وحزب الشيطان يموتون، أصحاب الحق يموتون، وأهل الباطل يموتون، الذين عاشوا لعقيدة ودعوة يموتون، والذين عاشوا لشهوة ونزوة يموتون، أصحاب الاهتمامات العالية يموتون، وأصحاب المآرب الحقيرة يموتون، الأبطال المغاوير يموتون والأقزام الجبناء يموتون، يموت المصلحون، ويموت المفسدون، يموت المعتزون بانتسابهم إلى الله، ويموت المستذلون بانتسابهم إلى العبيد.

فالكل إلى الرحيل والزوال ولكن «فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز» وحتى لو بقيت الحثالة قليلاً بعد ذهاب الخُلَّص الأصلاء فإنما يبقون ولا وزن لهم ولا قدْر، فعن مرداس الأسلمي - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: «يذهب الصالحون الأول فالأول ويبقى حُفالةٌ كحُفالةِ الشعير أو التمر لا يباليهم الله بالة» (١).

قال أبو عبد الله - البخاري -: يُقال حُفالة وحُثالة وهو الرديء من كل شيء، ومعنى لا يباليهم الله بالة: لا يرفع لهم قدراً ولا يقيم لهم وزناً.

---

(١) رواه البخاري: كتاب الرقاق، باب ذهاب الصالحين (جـ ١١، حديث رقم ٦٤٣٤).

ويقول علي - رضى الله عنه - : «اعلموا أنكم ميتون ومبعوثون من بعد الموت، وموقوفون على أعمالكم ومجزيون بها فلا تغرنكم الحياة الدنيا... فإنها دار بالبلاء محفوفة، وبالفناء معروفة، وبالغدر موصوفة، وكل ما فيها إلى زوال، وهى بين أهلها دول وسجال، لا تدوم أحوالها ولم يسلم من شر نزالها»

ولله در القائل:

لا ترجو البقاءَ بدارٍ لا بقاءَ لها   وهل سمعتَ بظلٍ غيرِ منتقلِ

* * *

دوام الحال من المحال

خلق الله الدنيا وقضى ألا تدوم على حال، فهى اليوم مقبلة، وغداً مدبرة، وهى اليوم ضاحكة مستبشرة، وغداً عابسة كالحة، وهكذا تتقلب أحوالها وتتغير أوضاعها، فالإنسان فيها يكون يوماً صحيحاً ويوماً سقيماً، يوماً غنياً ويوماً فقيراً، يوماً مشغولاً ويوماً فارغاً.

يقول الله تعالى: ﴿ ... **قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً * أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ** ..... ﴾ [النساء ٧٧ - ٧٨].

ولقلة متاع الحياة الدنيا يجب على العاقل ألا يجعلها له وطناً.

فعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال: كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك» (١).

وروى أن رسول الله ﷺ قال فى خطبة له بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أيها الناس: إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى

---

(١) رواه البخارى: كتاب الرقاق (جـ ١١ حديث رقم ٦٤١٦).

نهايتكم، إن المؤمن بين مخافتين، بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله فاعل فيه، وأجل قد بقى لا يدرى ما الله تعالى قاضٍ عليه فيه. فليأخذ العبد لنفسه من نفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت، والذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب. ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار» (١) .

ولله در القائل:

طلِقْ الدنيا ثلاثاً والتمسْ زوجاً سواها
إنها زوجةُ سوءٍ لا تُبالى مَنْ أتاها

* * *

الزهد فى الدنيا

يقول الجنيد – رحمه الله – : الزهد خلو القلب مما خلت منه اليد. ويقول ابن تيمية – رحمه الله – : الزهد ترك ما لا ينفع فى الآخرة؛ والورع ترك ما يخاف ضرره فى الآخرة.

قال الفضيل – رحمه الله – : أصل الزهد الرضا عن الله.

ويقول يونس بن ميسرة – رحمه الله – : ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، إنما الزهادة فى الدنيا: أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك وأن يكون حالك فى المصيبة وحالك إذا لم تصب بها سواء، وأن يكون ما دحُكَ وذامُّكَ فى الحق سواء (٢) .

فهذا هو الزهد فى الدنيا، فليس الزهد بتقديس الحرمان، ولا بتعظيم الفقر، ولا بالرضا بالدون، ولا بالاستكانة والمسكنة، فكم من فقير محروم هو راغب فى الدنيا راغب عن الآخرة، وكم من الناس من يملك الدنيا وهو زاهد فيها، وقد قيل

---

(١) ذكره أبو بكر الباقلانى فى كتابه إعجاز القرآن.
(٢) روى ابن ماجه معناه عن أبى ذر الغفارى مرفوعاً (٤١٠٠) الزهد.

لعبد الله بن المبارك : يازاهد . فقال : الزاهد هو عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها وأما أنا ففي ماذا زهدتُ؟!

بل إن الله تعالى ينكر علي الذين يحرمون علي أنفسهم طيبات الحياة الدنيا فيقول عز من قائل : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الاعراف : ٣٢].

فليس الاستمتاع بهذه الطيبات هو الحرام ولكن الحرام ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الاعراف : ٣٣] .

وعلى هذا فالمذموم هو الرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان بها .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس : ٧] .

فاستحباب الحياة الدنيا علي الآخرة يصطدم مع طبيعة الإيمان بل هو طبيعة الكفر، يقول تعالى : ﴿ ... وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ ﴾ [إبراهيم : ٢ - ٣] .

يقول صاحب الظلال - رحمه الله - : «إن الذين يوجهون قلوبهم للآخرة، لا يخسرون متاع الحياة الدنيا - كما يقوم فى الأخيلة المنحرفة - فصلاح الآخرة فى الإسلام يقتضى صلاح هذه الدنيا . والإيمان بالله يقتضى حسن الخلافة فى الأرض . وحسن الخلافة في الأرض هو استعمارها والتمتع بطيباتها . إنه لا تعطيل للحياة فى الإسلام انتظاراً للآخرة، ولكن تعمير للحياة بالحق والعدل والاستقامة ابتعاء رضوان الله، وتمهيداً للآخرة هذا هو الإسلام» (١) انتهى .

بل إن الله - تعالى - جعل الضرب فى الأرض إصلاحاً وإعماراً جعله سبباً

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢٠٨٦

من أسباب التخفيف على الأمة، فقال تعالى: ﴿ ... عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ..... ﴾ [المزمل: ٢٠].

وزكى الله – تعالى– أصحاب البيع والتجارة الذين لا تلهيهم تجارتهم عن الآخرة فقال تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ [النور: ٣٧].

ويوصي الله المؤمنين بألا تلهيهم أموالهم ولا أولادهم عن ذكر الله فيقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩].

ولم يوصهم بترك المال والأولاد.

ويخبر ﷺ بأن « خير الكسب كسب الصانع والعامل إذا نصحا » (١).

ويقول ﷺ: « ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كان له به صدقة » (٢).

فالمؤمن يعمل فى الدنيا لتكون مطيته إلى الآخرة، والكافر يعمل للدنيا لأنه لا أمل له في الآخرة، يقول تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: ١٢].

لذا فقد صدق رسول الله ﷺ حينما قال: « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » (٣).

الرضا هو الزهد:

يقول ﷺ: « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه » (٤).

---

(١) رواه أحمد عن أبى هريرة – مرفوعاً – وإسناده حسن.
(٢) رواه البخارى ومسلم عن أنس بن مالك – مرفوعاً – .
(٣) رواه مسلم عن أبى هريرة: كتاب الزهد، جـ ١٨ ص ٩٣ (بشرح النووى).
(٤) رواه مسلم والترمذى وابن ماجة (٤١٣٨) الزهد.

وعن عبيد الله بن محصن الأنصارى الخطمى – رضى الله عنه – قال: «قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم آمناً فى سربه معافى فى جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» (١).

وعندما اجتمع هارون الرشيد بالبهلول. قال له: عظنى فقال: بم أعظك؟ هذه قصورهم وهذه قبورهم.. ثم قال: كيف بك ياأمير المؤمنين إذا أقامك الحق تعالى بين يديه وسالك عن النقير والفتيل والقطمير وأنت عطشان، جوعان، عريان... وأهل الموقف ينظرون إليك ويضحكون... فخنقته العبرة وأمر له بصلة فقال ردها على من أخذتها منهم قبل أن لا تجد لهم شيئاً ترضيهم به. ثم أنشد:

دع الحرص على الدنيا　　وفى العيش فلا تطمع
ولا تجمع من المال　　فما تدرى لمن تجمع
فإن الرزق مقسوم　　وسوء الظن لا ينفع
فقير كل ذى حرص　　غنى كل من يقنع

وجاء رجل إلى عبد الله بن عمرو – رضى الله تعالى عنهما – يشكو الفقر:

فقال له: ألك امرأة تؤوى إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء. قال: فإن لى خادماً. قال: أنت من الملوك»(٢).

والناس دائماً يحبون من لا يتطلع إلى ما عندهم، لذا فإن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فقال:

يارسول الله: دلنى على عمل إذا عملته أحبنى الله وأحبنى الناس.

فقال: «ازهد فى الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس»(٣).

---

(١) رواه الترمذى وقال حديث حسن.
(٢) رواه مسلم موقوفاً (جـ١٨ ص ١١٠) بشرح النووى.
(٣) رواه ابن ماجه (٤١٠٢) عن سهل بن سعد الساعدى، وأسانيده حسنة.

صور من زهد السابقين:

١ – زهد سلمان الفارسى – رضى الله عنه –:

عن أنس رضى الله عنه قال: اشتكى سلمان فعاده سعد بن أبى وقاص فرآه يبكى، فقال له سعد: ما يبكيك يا أخى؟ أليس قد صحبت رسول الله ﷺ؟ أليس؟.. أليس؟

قال سلمان: ما أبكى واحدة من اثنتين: ما أبكى ضناً على الدنيا (حرصاً عليها) ولا كراهية فى الآخرة. ولكن رسول الله ﷺ عهد إلينا عهداً ما أرانى إلا قد تعديت (تجاوزت ولم أف بالعهد). قال: وما عهد إليك؟ قال عهد إلينا أنه يكفى أحدكم مثل زاد الراكب ولا أرانى إلا قد تعديت.. وأما أنت ياسعد: فاتق الله عند حكمك إذا حكمت وعند قسمك إذا قسمت، وعند همك إذا هممت.. قال ثابت فبلغنى أنه ما ترك إلا بضعة وعشرين درهماً مع نفيقة كانت عنده) [1].

٢ – زهد عمير بن سعد – رضى الله عنه –:

كان أهل حمص شديدى التذمر من ولاتهم، كثيرى الشكوى منهم، فما جاءهم من وال إلا وجدوا فيه عيوباً، وأحصوا له ذنوباً، ورفعوا أمره إلى خليفة المسلمين، وتمنوا عليه أن يبدلهم به من هو خير منه. فعزم الفاروق رضوان الله عليه أن يبعث إليهم بوال لا يجدون فيه مطعناً ولا يرون فى سيرته مغمزاً (عيبا)، فبحث فلم يجد خيراً من عمير بن سعد، وعلى الرغم من أن عميراً كان إذ ذاك يضرب (يسير غازياً) فى أرض الجزيرة من بلاد الشام على رأس جيشه الغازى فى سبيل الله، فيحرر المدن ويدك المعاقل (الحصون) ويخضع القبائل، ويقيم المساجد فى كل أرض وطئتها قدماه على الرغم من ذلك فقد دعاه أمير المؤمنين وعهد إليه بولاية حمص وأمره بالتوجه إليها، فاذعن للأمر على كره منه لأنه كان لا يؤثر شيئاً على الجهاد فى سبيل الله، بلغ عمير حمص فدعا الناس إلى

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٠٤) الزهد.

صلاة جامعة ولما قضيت الصلاة خطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه محمد ثم قال: «أيها الناس، إن الإسلام حصن منيع وباب وثيق (متين) وحصن الإسلام العدل، وبابه الحق.

فإذا دُك الحصن وحطم الباب استبيح حمى هذا الدين.

وإن الإسلام ما يزال منيعاً ما اشتد السلطان. وليست شدة السلطان ضرباً بالسوط ولا قتلاً بالسيف ولكن قضاء بالعدل وأخذاً بالحق.

ثم انصرف إلى عمله لينفذ ما أختطه لهم من دستور فى خطبته القصيرة.

قضى عمير بن سعد حولاً (عاماً) كاملاً فى حمص لم يكتب خلاله لأمير المؤمنين كتاباً، ولم يبعث إلى بيت المال من الخراج درهماً ولا ديناراً، فأخذت الشكوك تساور عمر (تدور فى نفسه) إذ كان شديد الخشية على ولاته من فتنة الإمارة، فلا معصوم عنده غير رسول الله ﷺ. فقال لكاتبه: اكتب إلى عمير بن سعد وقل له: إذا جاءك كتاب أمير المؤمنين فدع حمص وأقبل عليه، واحمل معك ما جبيت من فيء المسلمين، تلقى عمير بن سعد كتاب عمر رضى الله عنه فأخذ كيس طعامه وحمل قصعته على كتفه ووعاء وضوئه وأمسك بيده حربته، وخلف حمص وإمارتها وراءه، وانطلق يحث الخط - مشياً على قدميه - إلى المدينة. فما كان يبلغ عمير المدنية حتى كان قد شحب لونه، وهزل جسمه وطال شعره، وظهرت عليه وعثاء السفر.

دخل عمير على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فدهش الفاروق من حالته وقال: ما بك ياعمير؟! فقال: ما بى من شيء يا أمير المؤمنين فأنا صحيح معافى - بحمد الله - أحمل معى الدنيا كلها وأجرها من قرنيها. فقال: وما معك من الدنيا؟ فقال: معى جرابى وقد وضعت فيه زادى ومعى قصعتى آكل فيها وأغسل عليها رأسى وثيابى. ومعى قربة لوضوئى وشرابى ثم إن الدنيا كلها - ياأمير المؤمنين - تبع لمتاعى هذا، وفضلة لا حاجة لى ولا لأحد غيرى فيها. فقال عمر: وهل جئت ماشياً؟!

قال: نعم ياأمير المؤمنين. فقال: أما أُعطيت من الإمارة دابة تركبها؟ فقال: هم لم يعطوني، وأنا لم أطلب منهم. فقال: وأين ما أتيت به لبيت المال؟ فقال: لم آت بشيء. فقال: ولم؟!

فقال: لما وصلت إلى حمص؛ جمعت صلحاء أهلها ووليتهم جمع فيئهم فكانوا كلما جمعوا شيئاً منه، استشرتهم في أمره ووضعته في مواضعه، وأنفقته على المستحقين منهم. فقال عمر لكاتبه: جدد عهداً لعمير على ولاية حمص. فقال عمير: هيهات. فإن ذلك شيء لا أريده، ولن أعمل لك ولا لأحد بعدك ياأمير المؤمنين. ثم استأذنه بالذهاب إلى قرية في ضواحي المدينة يقيم بها أهله، فأذن له.

لم يمض على ذهاب عمير إلى قريته وقت طويل حتى أراد عمر أن يختبر صاحبه وأن يستوثق من أمره؟ فقال لواحد من ثقاته يدعى الحارث: انطلق ياحارث إلى عمير بن سعد وانزل به كأنك ضيف، فإن رأيت عليه آثار نعمة فعد كما أتيت، وإن وجدت حالاً شديدة فأعطه هذه الدنانير وناوله صرة فيها مائة دينار.

انطلق الحارث حتى بلغ قرية عمير، فسأل عنه فدُل عليه. فلما لقيه قال: السلام عليك ورحمة الله. فقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، من أين قدمتَ؟ فقال: من المدينة. فقال: كيف تركت المسلمين؟ فقال: بخير.

فقال: كيف أمير المؤمنين؟ فقال: صحيح صالح. فقال: أليس يقيم الحدود؟!

قال: بلى، ولقد ضرب ابناً له لفاحشة أتاها، فمات من الضرب.

فقال: اللهم أعن عمر، فإني لا أعلمه إلا شديد الحب لك.

أقام الحارث في ضيافة عمير بن سعد ثلاث ليال، فكان يُخرج له في كل ليلة قرصاً من الشعير. فلما كان اليوم الثالث؛ قال للحارث رجل من القوم: لقد أجهدت (أتعبت) عميراً وأهله؛ فليس لهم إلا هذا القرص الذي يؤثرونك به

على أنفسهم، وقد أضرَّ بهم الجوع، فإن رأيت أن تتحول عنهم إليَّ فافعل. عند ذلك أخرج الحارث الدنانير، ودفعها إلى عمير.

فقال عمير: ما هذه؟!! فقال الحارث: بعث بها إليك أمير المؤمنين.

فقال: ردها إليه، واقرأ عليه السلام، وقل له: لا حاجة لعمير بها - فصاحت امرأته - وكانت تسمع ما يدور بين زوجها وضيفه - وقالت: خذها - ياعمير - فإن احتجت إليها أنفقتها، وإلا وضعتها فى مواضعها فالمحتاجون هنا كثير. فلما سمع الحارث قولها؛ ألقى الدنانير بين يدى عمير وانصرف، فأخذها عمير وجعلها فى صُرر صغيرة ولم يبت ليلته تلك إلا بعد أن وزعها بين ذوى الحاجات، وخص منهم أبناء الشهداء.

عاد الحارث إلي المدينة فقال له عمر: ما رأيت ياحارث؟ فقال: حالاً شديدة يا أمير المؤمنين. فقال: أدفعت إليه الدنانير؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين. فقال: وما صنع بها ؟! فقال: لا أدرى، وما أظنه يبقى لنفسه منها درهماً واحداً. فكتب الفاروق إلى عمير يقول: إذا جاءك كتابى هذا فلا تضعه من يدك حتى تقبل عليَّ.

توجه عمير إلى المدينة، ودخل على أمير المؤمنين، فحياه عمر ورحب به وأدنى مجلسه (قربه إليه) ثم قال له: ما صنعت بالدنانير ياعمير؟!

فقال: وما عليك منها ياعمر بعد أن خرجت لى عنها؟!!

فقال: عزمت عليك أن تخبرنى بما صنعت بها. فقال: ادخرتها لنفسى لأنتفع بها فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون..

فدمعت عينا عمر، وقال: أشهد أنك من الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة (حاجة) ثم أمر له بوسق (ستون صاعاً) من طعام وثوبين. فقال: أما الطعام فلا حاجة لنا به يا أمير المؤمنين، فقد تركت عند أهلى صاعين من شعير، وإلى أن نأكلهما يكون الله - عز وجل - قد جاءنا بالرزق. وأما الثوبان فآخذهما لأم فلان (يعنى زوجته)، فقد بلى ثوبها وكادت تعرى. لم يمض وقت

طويل على هذا اللقاء بين عمر وعمير حتى بلغ الفاروق خبر وفاة عمير، فحزن عليه حزناً شديداً وقال: «وددت أن لى رجالاً مثل عمير بن سعد أستعين بهم فى أعمال المسلمين» [1].

٣ – زهد عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – :

ضرب الفاروق – رضى الله عنه – مثلاً فى الزهد – وخصوصاً بعد توليه الخلافة – ومن مواقفه فى الزهد: بينما هو ذات يوم وقد وضع الطعام بين يديه إذ جاء الغلام فقال: هذا عتبة بن فرقد بالباب.

قال: وما أقدم عتبة إذن؟ فلما دخل رأى بين يدى عمر طعامه وهو خبز وزيت قال: اقترب ياعتبة فأصب من هذا. فذهب يأكل، فإذا هو بطعام خشن لا يستطيع أن يسيغه. فقال: يا أمير المؤمنين: هل لك فى طعام يقال له الحوارى (لباب الدقيق). قال: ويلك ويسع المسلمين كلهم؟ قال: لا والله.

قال: ويلك ياعتبة! فأردت أن آكل طيباتى فى حياتى الدنيا وأستمتع بها؟ وقدم عمر الشام فصنع له طعام لم ير قبله مثله فقال: هذا لنا فما للفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير؟!

قال خالد بن الوليد: لهم الجنة. فاغرورقت عينا عمر وقال: لئن كان حظنا فى هذا الطعام وذهبوا بالجنة، لقد باينونا بوناً بعيداً.

٤ – زهد عمر بن عبد العزيز – رضى الله عنه – :

لقد تجرد عمر عن كل مظاهر الأبهة في الخلافة، فترك الشرط والحرس والقصر والفرش والرياش، وكل زينة كان يتزين بها الخلفاء قبله، بل وكل زينة كان يتزين بها هو قبل الخلافة، فزهد فى اللباس والمتاع والنساء والطعام والشراب وغير ذلك مما يتنافس فيه أرباب الملك والسلطان.

فكان لا يأخذ من بيت المال شيئاً ولا يجرى على نفسه من الفىء درهماً.

---

(١) من كتاب: صور من حياة الصحابة (بتصرف يسير).

فقيل له لو أخذت ما كان يأخذ عمر بن الخطاب (وكان عمر بن الخطاب يجرى على نفسه درهمين كل يوم). قال : إن عمر بن الخطاب لم يكن له مال وأنا مالى يغنينى !!

واشترى له رباح بن عبيدة قبل الخلافة رداء من خز مربع ذا أكمام بخمسمائة درهم فاستخشنه وقال : لقد اشتريته خشناً جداً. ثم اشترى له بعد الخلافة كساء بثمانية دراهم فاستلانه.

يقول يونس بن أبى شيب : شهدت عمر بن عبد العزيز وهو يطوف بالبيت، وإن حجزة إزاره لغائبة فى عكنه، ثم رأيته بعدما استُخلف، ولو شئت أن أعد أضلاعه من غير أن أمسها لفعلت!

ويقول مسلمة بن عبد الملك : (دخلت على عمر بن عبد العزيز أعوده فى مرضه، فإذا قميصه وسخ، فقلت لفاطمة بنت عبد الملك : يا فاطمة اغسلى قميص أمير المؤمنين، قالت : نفعل إن شاء الله، ثم عدت فإذا القميص على حاله. فقلت : يا فاطمة، ألم آمركم أن تغسلوا قميص أمير المؤمنين، فإن الناس يعودونه؟ قالت : والله ما له قميص غيره) [1] .

* * *

زهد العلماء

يقول الإمام ابن القيم – رحمه الله – « كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها، فلا بد أن يقول على الله غير الحق فى فتواه وحكمه في خبره وإلزامه، لأن أحكام الرب – سبحانه وتعالى – كثيراً ما تأتى على خلاف الناس ولا سيما أهل الرياسة، والذين يتبعون الشبهات فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيراً. فإذا كان العالم والحاكم محبين للرياسة متبعين للشهوات لم يتم لهما ذلك ولا بدفع ما يضاده من الحق ولا سيما إذا قامت له شبهة فتتفق

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ٥ ص ٤٨٣

الشبهة والشهوة ويثور الهوى فيخفى الصواب ويطمس وجه الحق، وإن كان الحق ظاهراً لا خفاء به ولا شبهة فيه أقدم على مخالفته وقال لي مخرج بالتوبة، وفي هؤلاء وأشباههم قال تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾ [مريم: ٥٩].

وقال الله تعالى فيهم أيضاً: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

أخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدنى مع علمهم بتحريمه عليهم وقالوا سيغفر لنا وإن عرض لهم عرض آخر أخذوه، فهم مصرون على ذلك، وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق.

فيقولون هذا حكمه وشرعه ودينه، وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك، أو لا يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه، فتارة يقولون على الله ما لا يعلمون وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه. وأما الذين يتقون فيعلمون أن الدار الآخرة خير من الدنيا فلا يحملهم حب الرياسة والشهوة على أن يؤثروا الدنيا على الآخرة. وطريق ذلك أن يتمسكوا بالكتاب والسنة ويستعينوا بالصبر والصلاة، ويتفكروا فى الدنيا وزوالها وخستها والآخرة وإقبالها ودوامها»(١).

ومن صور الزهد فى بريق الحياة الدنيا ما كان من العز بن عبد السلام عندما جاءه رسول الملك الصالح إسماعيل يرجوه أن يعتذر للسلطان ويقبّل يده حتى يعيد إليه مناصب القضاء فقال له: «والله لو قبَّل السلطان يدى ما قبلت، ياقوم أنتم فى واد ونحن فى واد، الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاكم به» إنها عزة العلماء حينما يزهدون فى الدنيا، وإلا لذلوا إذا آثروا الحياة الدنيا ومن هذه الصور أيضاً ما

(١) من كتاب الفوائد ص ١٢٠ : ص ١٢١

كان من الشيخ سعيد الحلبى حينما دخل عليه المسجد إبراهيم باشا – وهو صاحب السلطان والهيلمان – بقى الشيخ سعيد جالساً ماداً أرجله، وأقبل الناس جميعاً يحيون ويصافحون ووقف إبراهيم باشا طويلاً أمام الشيخ سعيد الذى لم يقبض رجله وسار وهو يغلى غيظاً وقد استشاط غضباً، فأخذ صرة من النقود وقال لحاجبه ادفعها للشيخ فعندما وضعت فى حجر الشيخ سعيد قال للحاجب «قل لسيدك : إن الذى يمد رجله لا يمد يده» (١).

* * *

زهد الرسول ﷺ

فراش رسول الله ﷺ :

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، قال : نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر فى جنبه، قلنا يارسول الله : لو اتخذنا لك وطاءً؟

فقال : مالي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها» (٢).

وعن عائشة – رضى الله عنها – قالت : «إنما كان فراش رسول الله ﷺ الذى ينام عليه أدماً حشوه ليفاً» (٣).

وعن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى – رضى الله عنه – قال : «أخرجت لنا عائشة – رضى الله عنها – كساءً ملبداً وإزاراً غليظاً، فقالت : قبض رسول الله ﷺ فى هذين (٤).

---

(١) من كتاب «ربانية لا رهبانية» لأبى الحسن الندوى – رحمه الله –.

(٢) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح (انظر صحيح الترمذى بشرح ابن العربى (٩ / ٢٢٣).

(٣) رواه البخارى : كتاب الرقاق (١١ / ٢٨٢)، مسلم : كتاب اللباس (١٤ / ٥٧).

(٤) رواه مسلم : كتاب اللباس (١٤ / ٥٧).

طعام رسول الله ﷺ :

يقول النعمان بن بشير – رضى الله عنهما – : ذكر عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – ما أصاب الناس من الدنيا فقال : « لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يتلوى لا يجد من الدقل ما يملأ بطنه » (١) .

وعن عائشة – رضى الله عنها – قالت : « ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ » (٢) .

وعن أنس – رضى الله عنه – قال : « لم يأكل النبى ﷺ على خوان حتى مات ولم يأكل خبزاً مرققاً حتى مات » (٣) .

وعن عروة عن عائشة – رضى الله عنها – كانت تقول : والله يا ابن أختى إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة فى شهرين، وما أوقد فى أبيات رسول الله ﷺ نار . قلت : يا خالة : فما كان يعيشكم؟ قالت : الأسودان؟ التمر والماء، إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منائح، فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقيناه » (٤) .

* * *

التنافس على الدنيا

إذا جهل الناس حقيقة الحياة الدنيا تكالبوا عليها وتنافسوها، وقضوا حياتهم فيها دون أن يعملوا حساباً لآخرتهم .

---

(١) رواه مسلم : كتاب الزهد (١٨ / ١٠٩) ، الترمذى كتاب الزهد (٩ / ٢١٦) .
والدقل : ردىء التمر.

(٢) رواه البخارى : كتاب الرقاق (١١ / ٢٨٢) ، ورواه مسلم : كتاب الزهد (١٨ / ١٠٥، ١٠٦).

(٣) رواه البخارى : كتاب الرقاق (١١ / ٢٧٣)، ورواه الترمذى : كتاب الزهد (٩ / ٢١٦)، ورواه ابن ماجه (٣٢٩٢) .

(٤) رواه البخارى : كتاب الرقاق (١١ / ٢٨٣) ، ورواه مسلم : كتاب الزهد (١٨ / ١٠٧، ١٠٨).

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٨ – ١٩].

ويحذر الله الناس جميعاً من الاغترار ببريق الحياة الدنيا فيقول:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [فاطر: ٥].

وفتن الحياة الدنيا كثيرة، فمن الناس من يغتر بالمال، ومنهم من يغتر بالعلم، ومنهم من يغتز بالقوة، ومنهم من يغتز بالسلطان. وهكذا تتعدد مظاهر الغرور فى الحياة الدنيا، وهكذا يغتر أصحاب الدنيا ببريقها يظنونه حقيقة أصيلة!!

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

ويقول الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

يقول صاحب الظلال – رحمه الله – ذلك كله الذى عرضه من اللذائذ المحببة – وسائر ما يماثله من اللذائذ والشهوات – متاع الحياة الدنيا. لا الحياة الرفيعة، ولا الآفاق البعيدة،.. متاع هذه الأرض القريب.. فأما من أراد الذى هو خير.. خير من ذلك كله. خير لأنه أرفع فى ذاته. وخير لأنه يرفع النفس ويصونها من الاستغراق فى الشهوات، والانكباب على الأرض دون التطلع إلى السماء.. من أراد الذى هو خير فعند الله من المتاع ما هو خير وفيه عوض كذلك عن تلك الشهوات: ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (١) انتهى.

(١) فى ظلال القرآن جـ ١ ص ٣٧٥

ورسول الله ﷺ يحذرنا من خطورة الدنيا، ومن ذلك:

* عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء» (١) .

* وعن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أيضاً - قال: جلس رسول الله ﷺ على المنبر وجلسنا حوله فقال: «إن مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها» (٢) .

* وعن عمرو بن عوف الأنصارى - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح - رضى الله عنه - إلى البحرين يأتى بجزيتها فقدم بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله ﷺ حيث رآهم ثم قال: أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشىء من البحرين؟ فقالوا: أجل يا رسول الله، فقال: «أبشروا وأمّلوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بُسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم» (٣) .

ويعلمنا رسول الله ﷺ أن ننظر إلى من هوت أسفل منا لنزداد شكراً لله على نعمه، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم» (٤) .

والمؤمن الحق هو الذى يعلم أن الله عز وجل إذا لم يفتح عليه من زهرة الحياة الدنيا ففى ذلك حماية له من خطرها، وكما جاء فى الحديث «إن الله - عز وجل

---

(١) رواه مسلم (١٧ / ٥٥) . (٢) متفق عليه .

(٣) رواه البخارى: كتاب الرقاق (١١ / ٢٤٣) ، ورواه مسلم: (١٨ / ٩٥) أول كتاب الزهد .

(٤) رواه البخارى ، رواه مسلم جـ ١٨ ص ٩٧ (شرح النووى) .

– ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه، كما تحمون مريضكم الطعام والشراب » (١) .

* * *

الآخرة خير وأبقى

بيَّن الله عز وجل لنا حقيقة الدنيا وحذرنا منها وأخبرنا بما هو خير منها وأفضل فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [النساء: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٢].

ويقول للذين يتقاعسون عن الجهاد في سبيله: ﴿ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨].

ويقول تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٦ – ١٧].

ويقول تعالى على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ [غافر: ٣٩].

ويقول تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥ – ١٦].

وبينت السنة المشرفة ذلك: فقال ﷺ:

* « من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى » (٢) .

---

(١) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد.

(٢) رواه أحمد والبزار وابن حبان في صحيحه والحاكم والبيهقي في الزهد، وقال الحاكم صحيح على شرطهما.

* «ألا إن الدنيا عرض حاضر، يأكل منه البر والفاجر، ألا وإن الآخرة وعد صادق يقضى فيه ملك قادر، ألا وإن الخير كله بحذافيره فى الجنة .. ألا وإن الشر كله بحذافيره فى النار، واعملوا وأنتم من الله على حذر، واعلموا أنكم معروضون على أعمالكم وأنكم ملاقو الله ربكم لابد فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» (١).

* وعن أنس – رضى الله عنه – قال: «قال رسول الله ﷺ: «من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهى راغمة، ومن كانت الدنيا أكبر همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له» (٢).

* وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» (٣).

ويقول على بن أبى طالب – رضى الله عنه –: «ارتحلت الدنيا مدبرة وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل» (٤).

ويقول عمر بن عبد العزيز – رضى الله عنه –:

«أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولم تتركوا سدى، وإن لكم معاداً يجمعكم الله عز وجل فيه للحكم فيكم والفصل بينكم، فخاب وشقى عبد أخرجه الله – عز وجل – من رحمته التى وسعت كل شىء، وجنته التى عرضها السماوات والأرض وإنما يكون الأمان غداً لمن خاف الله تعالى واتقى، وباع قليلاً بكثير وفانياً بباق، وشقاوة بسعادة، ألا ترون أنكم فى كل يوم تشيعون غادياً

---

(١) رواه البيهقى فى السنن (٣/٢١٦).

(٢) رواه الترمذى فى صفة القيامة (٢٥٨٣)، وقال الألبانى: إسناده ضعيف لكن له متابعات وله شاهد عند ابن ماجه وابن حبان وهو في الصحيحة رقم ٩٤٩

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه البخارى موقوفاً على علىٍّ: كتاب الرقاق – باب فى الأمل وطوله.

رائحاً إلى الله قد قضى نحبه، وانقطع أمله، فتضعونه فى بطن صدع من الأرض، غير موسد ولا ممهد، قد خلع الأسباب وفارق الأحباب وواجه الحساب».

ولله در القائل:

عتبت على الدنيا لرفعة جاهل
وخفض لذى علم فقالت خذ العذرا

بنو الجهل أبنائى لهذا رفعتهم
وأهل التقى أبناء ضرتى الأخرى

أأترك أبنائى يموتون ضيعة
وأرضع أبناءً لضرتى الأخرى

ويقول الشافعى - رحمه الله - : «من ادعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها فقد أعظم الفرية على الله».

* * *

المحمود من الدنيا والمذموم

خلق الله الإنسان وأوجده فى هذه الدنيا ليعمرها وفق منهج الله، فإذا ضل الإنسان عن المنهج واتبع هواه فقد خالف الحكمة التى من أجلها خلقه الله حيث يقول تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

فما أصابه الإنسان من الدنيا يريد به الآخرة فهو محمود، يثاب الإنسان عليه، وما أصابه منها يريدها به فهو مذموم.

وعلى ذلك فالآيات والأحاديث الواردة فى ذم الدنيا، فهو ليس ذماً لها فى حد ذاتها، ولكن الذم خاص بأعمال الإنسان إذا ضل وانحرف عن منهج الله. فلا يعقل أن يكون الذم للسماء والأرض، والجبال، والشمس والقمر، والبحار، وغيرها لأنها كلها آيات دالة على عظمة الله، يقول تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى**

السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦ – ٨].

ويقول تعالى: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ * إِلاَّ مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ [الغاشية: ١٧ – ٢٣].

وليس المذموم من الدنيا هو الليل والنهار، لأنهما آيتان من آيات الله، ونعمتان من نعم الله، يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢].

ولله در القائل:

إنما الدنيا إلى الجنة والنار طريق

والليالي متجر الإنسان والأيام سوق

وعلى هذا الفهم تحمل الآيات والأحاديث الواردة في ذم الدنيا ومنها:

* عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله، وما والاه وعالماً ومتعلماً» (١).

* وعنه – أيضاً – رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «تعس عبد الدنيار، والقطيفة، والخميصة، إن أعطي منها رضي وإن لم يُعط لم يرض» (٢).

تعس: هلك، القطيفة: الثوب الذي له خمل، الخميصة: الكساء المربع.

* عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – «أن رسول الله ﷺ قام على المنبر فقال: إنما أخشى عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من بركات الأرض. ثم

(١) رواه الترمذي: الزهد (٩/١٩٨)، وقال حسن غريب، ورواه ابن ماجه (٤١١٢)، وحسنه الألباني.

(٢) رواه البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال (جـ ١١/٦٤٣٥).

ذكر زهرة الدنيا فبدأ بإحداهما وثنى بالأخرى. فقام رجل فقال: يارسول الله أوَ يأتى الخير بالشر؟ فسكت عنه النبى ﷺ، قلنا يوحى إليه، وسكت الناس كأن على رءوسهم الطير. ثم إنه مسح عن وجهه الرُّحضَاءَ فقال: أين السائل آنفاً؟ أوَ خير هو - ثلاثاً - إن الخير لا يأتى إلا بالخير وإنه كلُ ما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يُلمُّ، أكلتْ حتى امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت وإن هذا المال خضِرةٌ حُلوةٌ، ونعم صاحب المسلم لمن أخذه بحقه فجعله فى سبيل الله واليتامى والمساكين، ومن لم يأخذها بحقه فهو كالآكل الذى لا يشبع ويكون عليه شهيداً يوم القيامة» [1].

معنى الحبط: التخمة، ومعنى ثلطت: ألقت الثلط وهو الرجيع الرقيق، ومعنى الرحضاء: العرق من الشدة.

* * *

الدنيا دار صدق لمن صدقها

يقول الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

فلولا الدنيا لما كان هناك مجال لأن يعمل الإنسان الخير الذى يُجزى به فى الآخرة، وكما جاء فى الحديث: «إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله» قيل: وكيف يستعمله يارسول الله؟ قال: «يوفقه لعمل صالح قبل الموت ثم يقبضه عليه»[2].

وفى الأثر: «لا تسبوا الدنيا فنعمت مطية المؤمن... عليها ينال الخير، وبها ينجو من الشر» وأنه إذا قال العبد: لعن الله الدنيا.. قالت الدنيا: لعن الله أعصانا لربه.

وقد حدث أن ذم رجل الدنيا عند على بن أبى طالب - رضى الله عنه -

---

(١) رواه البخارى: كتاب الجهاد والسير. باب فضل النفقة فى سبيل الله، ورواه مسلم: كتاب الزكاة - باب التحذير من الاغترار، ورواه كذلك الترمذى والنسائى وأحمد ومالك فى الموطأ.

(٢) رواه أحمد، ورواه كذلك الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين.

فقال: «الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار نجاة لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، ومهبط وحى الله ومصلى ملائكته، ومسجد أنبيائه، ومتجر أوليائه، ربحوا فيها الرحمة، واكتسبوا فيها الجنة، فمن ذا الذى يذمها؟. وقد آذنت بنيها، ونادت بفراقها، وشبهت بسرورها السرور، وببلائها البلاء ترغيباً وترهيباً؟! فيا أيها الذام للدنيا المعلل نفسه متى خدعتك الدنيا؟ أم متى استتمت إليك (أى متى منعت إليك ما تستحق به الذم) أبمصارع آبائك فى البلى؟ أم بمضاجع أمهاتك فى الثرى؟ كم مرضت بيديك، وكم غللت بكفيك؟ تطلب له الشفاء، وتستوصف له الأطباء غداة لا يغنى عنه دواؤك ولا ينفعه بكاؤك».

ويقول يحيى بن معاذ: كيف لا أحب دنيا قدر لى فيها قوت أكتسب به حياة أدرك بها طاعة أنال بها الجنة.

* * *

التزود للدار الآخرة

رحلة الإنسان إلى الدار الآخرة رحلة طويلة، سفرها بعيد، مراحلها كثيرة، كل مرحلة تحتاج إلى زاد يمكن الإنسان من اجتيازها، وخير زاد يعين الإنسان على ذلك، تقوى الله - عز وجل - يقول الله تعالى: ﴿ ... وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وكما روى أن رسول الله ﷺ أوصى أبا ذر - رضى الله عنه - فقال: «يا أبا ذر: أحكم السفينة فإن البحر عميق، واستكثر الزاد فإن السفر طويل، وخفف ظهرك فإن العقبة كؤود، وأخلص العمل فإن الناقد بصير» (١).

ووقف أبو الدرداء - رضى الله عنه - ذات يوم أمام الكعبة ثم قال لأصحابه: أليس إذا أراد أحدكم سفراً يستعد له بزاد؟! قالوا: بلى قال: فسفر الآخرة أبعد مما تسافرون.. فقالوا: دلنا على زاده. قال: حجوا حجة لعظائم

(١) رواه الإمام المقدسى.

الأمور، وصلوا ركعتين فى ظلمة الليل لوحشة القبور، وصوموا يوماً شديداً حره لطول يوم النشور.

وحينما يرى الإنسان مقدمات الموت وسكراته، ويعلم أن زاده لا يبلغه، يتمنى لو يرجع إلى الدنيا مرة أخرى ليتزود بالعمل الصالح:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

ويقول تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [المنافقون: ١٠].

ويبين الله تعالى لعباده أن ما قدموه وادخروه عند الله جعله الله ذخراً لهم في الآخرة، فيقول تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ١١٠].

ويبين الله تعالى أن البر الذى يتزود به الإنسان لا يتمثل في مجرد التوجه إلى المشرق أو المغرب، يقول تعالى: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

المبادرة إلى فعل الخيرات:

لا يعيش الإنسان فى هذه الدنيا على حال واحدة، من الصحة والفراغ، والشباب، وغيرها، لذا كان واجباً على الإنسان أن يغتنم شبابه قبل هرمه وصحته قبل سقمه، وفراغه قبل شغله، وغناه قبل فقره، وحياته قبل موته.

يقول رسول الله ﷺ: «بادروا بالأعمال الصالحة فستكون فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً، ويمسى مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا» (١) .

ويقول أيضاً: «بادروا بالأعمال سبعاً: هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنى مطغياً، أو مرضاً مفسداً أو هرماً مفنداً أو موتاً مجهزاً، أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة، فالساعة أدهى وأمر» (٢) .

وقد قيل لإبراهيم بن أدهم – رحمه الله – لم زهدت في الدنيا يا إبراهيم؟ فقال: لثلاث:

الأول : رأيت الطريق طويلاً وليس معى زاد.

الثاني : رأيت القبر موحشاً وليس معى مؤنس.

الثالث: رأيت الجبار قاضياً وليس معى حجة ولا من يدافع عنى.

وقيل له أوصنا بما ينفعنا فقال: إذا رأيتم الناس مشغولين بأمر الدنيا؛ فاشتغلوا بأمر الآخرة، وإذا اشتغلوا بتزيين ظواهرهم فاشتغلوا بتزيين بواطنكم، وإذا اشتغلوا بعمارة البساتين والقصور فاشتغلوا بعمارة القبور، وإذا اشتغلوا بخدمة المخلوقين فاشتغلوا بخدمة رب العالمين، وإذا اشتغلوا بعيوب الناس فاشتغلوا بعيوب أنفسكم، واتخذوا من هذه الدنيا زاداً يوصلكم إلي الآخرة فإنما الدنيا مزرعة الآخرة.

ويقول أحدهم:

تزود للذى لا بد منه
فإن الموت ميقات العباد
وتب مما جنيت وأنت حى
وكن متنبهاً قبل الرقاد

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة.

(٢) رواه الترمذى – عن أبى هريرة – وقال حديث حسن.

ستندم إن رحلت بغير زاد
وتشقى إذ يناديك المنادى
أترضى أن تكون رفيق قوم
لهم زاد وأنت بغير زاد؟!

وقال آخر:

قدم لنفسك خيراً وأنت مالك مالك
من قبل أن تصبح فرداً ولون حالك حالك
ولست والله تدرى أى المسالك سالك
إما لجنة عدن أو فى المهالك هالك

زاد الإنسان إلى ربه:

* عن معاذ بن جبل – رضى الله عنه – قال: «احتبس عنا رسول الله ﷺ ذات غداة فى صلاة الصبح، حتى كدنا نتراءى قرن الشمس، فخرج رسول الله ﷺ فثوب بالصلاة (أمر بالإقامة) وصلى وتجوز فى صلاته، . فلما سلم قال: «كما أنتم على مصافكم» ثم أقبل إلينا فقال: «إنى سأحدثكم ما حبسنى عنكم الغداة .. إنى قمت من الليل فصليت ما قدر لى، فنعست فى صلاتى حتى استثقلت فإذا أنا بربى – عز وجل – فى أحسن صورة .. فقال: يامحمد .. أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى (الملائكة) قلته: لا أدرى رب .. قال يامحمد .. فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدرى رب، فرأيته وضع كفه بين كتفى حتى وجدت برد أنامله فى صدرى، وتجلى لى كل شىء وعرفت .. فقال: يامحمد: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: فى الكفارات والدرجات .. قال: وما الكفارات؟ قلت: نقل الأقدام إلى الجمعات (وفى رواية: إلى الجماعات) والجلوس فى المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء عند الكريهات. قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام ولين الكلام، والصلاة والناس نيام .. قال: سل: قلت: اللهم إنى أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لى

وترحمنى، وإذا أردت فتنة فى قوم فتوفنى غير مفتون، وأسألك حبك وحب من يحبك، وحب عمل يقربنى إلى حبك » وقال رسول الله ﷺ : « إنها حق فادرسوها وتعلموها » (١) .

* وعن أبى ذر - رضى الله عنه - قال : قلت يارسول الله : أى الأعمال أفضل؟ قال : الإيمان بالله والجهاد فى سبيله، قلت : أى الرقاب أفضل؟ قال أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمناً، قلت : فإن لم أفعل؟ قال : « تعين صائغاً، أو تصنع لأخرق (جاهل لا يحسن الصنع) . قلت : يارسول الله : أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال : تكف شرك عن الناس . فإنها صدقة منك على نفسك » (٢) .

* وعنه أيضاً : أن النبى ﷺ قال : « عرضت على أعمال أمتى . . . حسنها وسيئها . . فوجدت فى محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق، ووجدت فى مساوىء أعمالها النخامة تكون فى المسجد لا تدفن » (٣) .

* وعنه أيضاً : أن ناساً قالوا : يارسول الله : ذهب أهل الدثور (الأموال) بالأجور يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم . . قال : أوَ ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهى عن المنكز صدقة، وفى بضع أحدكم صدقة . قالوا : يارسول الله : أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام . . أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر »(٤) .

* وعن أبى موسى - رضى الله تعالى عنه - عن النبى ﷺ قال : « على كل مسلم صدقة . . قال : أرأيت إن لم يجد؟ قال « يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق » . قال : أرأيت إن لم يستطع؟

قال : « يعين ذا الحاجة الملهوف » .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥ / ٢٤٣)، والترمذى وقال حديث صحيح . وقال : سألت عنه البخارى فقال : حديث حسن صحيح .

(٢) متفق عليه . (٣) رواه مسلم . (٤) رواه مسلم .

قال : أرأيت : إن لم يستطع؟

قال : يأمر بالمعروف أو الخير.

قال : أرأيت إن لم يفعل؟

قال : يمسك عن الشر فإنها صدقة » (١).

* وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ قال : لقد رأيت رجلاً يتقلب فى الجنة فى شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين » (٢).

* وروى عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما – أن رسول الله ﷺ بعث أبا موسى على سرية فى البحر... فبينما هم كذلك قد رفعوا الشراع فى ليلة مظلمة إذا هاتف فوقهم يهتف : يا أهل السفينة قفوا أخبركم بقضاء الله على نفسه فقال أبو موسى : أخبرنا إن كنت مخبراً.. قال : إن الله تبارك وتعالى قضى على نفسه أنه من أعطش نفسه له فى يوم حار سقاه الله يوم العطش، وكان حقاً على الله – عز وجل – أن يرويه يوم القيامة.. قال راوى الحديث : فكان أبو موسى يتوخى اليوم الشديد الحر الذى يكاد الإنسان ينسلخ فيه حراً فيصومه »(٣).

ولله در القائل :

وربك لو أبصرت قوماً تتابعت
عزائمهم حتى لقد بلغوا الجهد
لأبصرت قوماً حاربوا النوم وارتدوا
بأردية التسهاد والتزموا السهدا
وصاموا نهاراً دائماً ثم أفطروا
على بلغ الأقوات واستعملوا الكدا

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم : كتاب البر والصلة، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق (جـ ١٦ ص ١٧١).

(٣) أخرجه البزار وابن أبى الدنيا.

أولـئـك قــــوم أحــــسـن الله فــــعـلـهـم

وأبـدلـهـم مـن حـــسـن فــــعـلـهـم الخلدا

فـــيـــا طالب الحـــوراء فى خـــدرها

وطـالـبـــــاً ذاك عـلـى قـــــــدرهـا

انـهـض بـجـــــد لا تـكـن وانـيـــــاً

وجـــاهـد الـنـفـس عـلى صـــبـــرهـا

وقـم إذا الـلـيـل بـدا وجـــــهــــــه

وصـم نـهـــاراً فــــهـــو من مــــهـــرهـا

خير الناس وشر الناس:

* عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخيركم» قالوا: بلى.. قال: «خياركم أطولكم أعماراً وأحسنكم أعمالاً» (١).

* وعن أبى بكر - رضى الله عنه -: أن رجلاً قال: يارسول الله.. أى الناس خير؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله». قال: فأى الناس شر؟ قال: «من طال عمره وساء عمله» (٢).

ولله در القائل:

النفس تبكى على الدنيـا وقـد علمت

أن الـسـلامـة فـيــهـا ترك مـا فـيــهـا

لا دار لـلـمــــرء بعــد الموت يسكنهـا

إلا التى كـان قـبـل الموت يبنيـــهـا

---

(١) رواه أحمد ورواته رواة الصحيح، وابن حبان فى صحيحه، والبيهقى، ورواه الحاكم من حديث جابر، وقال صحيح على شرطهما.

(٢) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح، والطبرانى بإسناد صحيح والحاكم والبيهقى فى الزهد.

فـــإن بـنـاهـا بـخـــيـــر طـاب مـــسـكـنـه

وإن بـنـاهـا بـشــــر خــــاب بـانـيـــــهـــــا

لا تـركـنـن إلى الـدنـيـــا ومـــا فـــيـــهـــا

فـــالمـوت لا شـك يـفـنـيـنـا ويـفـنـيـــهـــا

واعـــمـل لـدار غـــداً رضـــوان خـــازنـهـــا

والجـــار أحـــمـــد والـرحـــمـن نـاشـــيـــهـــا

قـــصـــورهـا ذهـب والمـسـك طـيـنـتـــهـــا

والـزعـــفـــران حـــشـــيـش نـابـت فـــيـــهـــا

* * *

الفصل الثانى
المـــــوت

* ذكر الموت.
* الأعمال بالخواتيم.
* سكرات الموت.
* حالة الاحتضار.
* صور من أحوال المحتضرين.
* ما يسن عند الاحتضار.

ذكر المـــوت

يقول الشيخ سعيد حوى – رحمه الله – : « فجدير بمن الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقره وبطن الأرض مستقره، والقيامة موعده، والجنة والنار، مورده، أن لا يكون له فكر إلا في الموت ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلا لأجله، ولا تدبير إلا فيه، ولا تطلع إلا إليه، ولا تعريج إلا عليه، ولا اهتمام إلا به، ولا حول إلا له، ولا انتظار وتربص إلا له، وحقيق بأن يعد نفسه من الموتى ويراها فى أصحاب القبور، فإن كل ما هو آت قريب، والبعيد ما ليس بآت »(١).

أقسام الناس فى ذكر الموت :

الناس فى هذه الحياة إما منهمك وإما تائب مبتدىء، أو عارف منته.

أولا : المنهمك : وهو الذى يعيش هذه الحياة لذاتها، يأكل، ويشرب، ويتلذذ بمتع الحياة الدنيا، فلا يشغله إلا أن يأكل اللذيذ من الطعام، ويشرب البارد من الشراب، ويلبس الجميل من الثياب، وينام على الوثير من الفراش!! فهو لا يذكر الموت، وإن ذكر به تنغصت حياته، فيتأسف على دنياه فلا يزداد بذكر الموت إلا بعداً. وفى حق هؤلاء يقول تعالى :

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣].

يقول صاحب الظلال – رحمه الله – : « ذرهم فيما هم فيه من حياة حيوانية محضة للأكل والمتاع، لا تأمل فيها ولا تدبر ولا استطلاع. ذرهم فى تلك الدوامة : الأمل يلهى والمطامع تغر، والعمر يمضى والفرصة تضيع. ذرهم فلا تشغل نفسك بهؤلاء الهالكين، الذين ضلوا فى متاهة الأمل الغرور، يلوح لهم ويشغلهم بالأطماع، ويملى لهم فيحسبون أن أجلهم ممدود، وأنهم محصلون ما

---

(١) المستخلص فى تزكية الأنفس.

يطمعون لا يردهم عنه راد، ولا يمنعهم منه مانع. وأن ليس وراءهم حسيب؛ وأنهم ناجون فى النهاية بما ينالون مما يطمعون!

وصورة الأمل الملهى صورة إنسانية حية. فالأمل البراق ما يزال يخايل لهذا الإنسان، وهو يجرى وراءه، وينشغل به، ويستغرق فيه، حتى يجاوز المنطقة المأمونة؛ وحتى يغفل عن الله، وعن القدر، وعن الأجل؛ وحتى ينسى أن هنالك واجباً، وأن هنالك محظوراً؛ بل حتى لينسى أن هنالك إلهاً، وأن هنالك موتاً، وأن هناك نشوراً.

وهذا هو الأمل القاتل الذى يؤمر الرسول ﷺ أن يدعهم له.. «فسوف يعلمون» حيث لا ينفع العلم بعد فوات الأوان.. وهو أمر فيه تهديد لهم، وفيه كذلك لمسة عنيفة لعلهم يصحون من الأمل الخادع الذى يلهيهم عن المصير المحتوم» (١).

وعن أنس – رضى الله عنه – قال: «خط رسول الله ﷺ خطاً وقال: هذا الإنسان، وخط إلى جنبه خطاً وقال: هذا أجله، وخط خطاً آخر بعيداً منه فقال: وهذا الأمل، فبينما هو كذلك إذ جاءه الأقرب» (٢).

ثانياً: التائب المبتدىء: وهو يكثر من ذكر الموت ليبعث فى قلبه الخوف والخشية، وهذا التائب المبتدىء قد يكره الموت، وذلك خوفاً من أن يموت قبل الاستعداد والتزود له.

* قيل إن هارون الرشيد انتقى أكفانه بيده عند الموت وكان ينظر إليها ويقول: ﴿**مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ**﴾ [الحاقة: ٢٨ – ٢٩].

* وروى أن المأمون افترش رماداً واضجع عليه وقال: يامن لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه.

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢١٢٦

(٢) رواه البخارى: كتاب الرقاق (١١/ ٢٣٥، ٢٣٦).

* قيل لعبد الملك بن مروان فى مرضه الذى مات فيه كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: أجدنى كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٩٤].

ثالثاً: العارف: وهو يذكر الموت دائماً لأنه موعد لقائه بحبيبه.

* لما احتضر مكحول ضحك، وكان الغالب عليه الحزن، فقيل له: لم ضحكت؟ فقال: دنا فراق من كنت أحذره، ولقاء من كنت أرجوه.

* ولما حضرت بلالاً - رضى الله عنه - الوفاة، قالت امرأته: واحزناه. فقال: بل واطرباه. غداً ألقى الأحبة محمداً وحزبه.

* وقيل للكسائى - رحمه الله - لما حضرته الوفاة: ما كان عملك؟ قال: لو لم يقترب أجلى ما أخبرتكم.. وقفت على باب قلبى أربعين سنة كلما مر عليه غير الله تعالى رددته عنه.

* لما حضرت الوفاة معاذ بن جبل - رضى الله عنه - قال: اللهم إنى كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك.. اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا لجرى الأنهار، ولا لغرس الأشجار.. ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر.. فلما اشتد النزع به قال: وعزتك إنك لتعلم أن قلبى يحبك.. ثم أفاق، وكان له ولد قتل شهيداً، فقال: أتى ولدى فأخبرنى أنه لحق بالذين أنعم الله عليهم، وأن رسول الله ﷺ قد جاء فى مائة ألف من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ومائة ألف من الملائكة المقربين يتلقون روحى ويصلون على، ويشيعونى إلى قبرى. ثم جعل يصافح قوماً لم نرهم، ويسلم عليهم حتى طلعت روحه.. فلما مات رئى فى المنام على فرس أبلق وخلفه زحام كزحام منى ورجال بيض عليهم ثياب خضر على خيل بلق وهو يقول: ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

* وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء: عظنى.. فقال: لست أول

خليفة تموت، قال زدنى، قال: ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت، وقد جاءت نوبتك.. فبكى عمر لذلك.

* وكان الربيع بن خثيم قد حفر قبراً فى داره.. فكان ينام فيه كل يوم مرات ليستديم بذلك ذكر الموت، وكان يقول: لو فارق ذكر الموت قلبى ساعة واحدة لفسد.

فوائد ذكر الموت: لذكر الموت فوائد عظيمة منها:

* أن ذكر الموت يدفع الإنسان إلى التوبة، إذ أن الموت مصير محتوم، فهو باب وكل الناس داخله، حوض وكل الناس وارده، كأس وكل الناس شاربه.

قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ [الأنبياء: ٣٤، ٣٥].

* أن ذكر الموت يزهد فى الدنيا ويرغب فى الآخرة وينشط الإنسان فى العبادة. فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا من ذكر هاذم اللذات» (١).

وكان يزيد الرقاشى يقول لنفسه: ويحك يانفس، من ذا يصلى عنك بعد الموت؟ من ذا يصوم عنك بعد الموت؟ من ذا يترضى عنك ربك بعد الموت؟ ثم يقول: أيها الناس: ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقى حياتكم؟ من كان الموت طالبه، والقبر بيته، والتراب فراشه. والدود أنيسه. وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر كيف يكون حاله؟ ثم يبكى حتى يسقط مغشياً عليه.

وعن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال: أتيت رسول الله ﷺ عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار: من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله؟ فقال

---

(١) رواه الترمذى: الزهد (٩ / ١٨٧)، وقال: حديث حسن غريب، ورواه النسائى: الجنائز (٤ / ٤)، ورواه ابن ماجه: الزهد (٤٢٥٨)، ورواه الحاكم (٤ / ٣٢١) فى الرقاق. وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه، ووافقه الذهبى وصححه الألبانى بشواهده.

« أكثرهم ذكراً للموت وأشدهم استعداداً له، أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة » [1] .

* أن ذكر الموت يلين القلب القاسي : فقد اشتكت امرأة إلى عائشة — رضى الله عنها — قساوة قلبها فقالت : أكثري ذكر الموت يرق قلبك .

* أن ذكر الموت يردع عن ارتكاب المعاصي ويمنع الفرح بها ويهون مصائب الدنيا : يقول التيمي — رحمه الله — شيئان قطعا عنى لذة الدنيا : ذكر الموت، وذكر الموقف بين يدى الله تعالى .

وكان الثورى — رحمه الله — إذا ذكر الموت لا ينتفع به أياماً . فإن سُئل عن شيء قال : لا أدرى لا أدرى .

وكان يوسف بن أسباط — رحمه الله — إذا شيع جنازة رجع الناس به محمولاً فى النعش .

وقد نظر أحد الصالحين إلى داره فأعجبه حسنها ثم بكى وقال : « والله لولا الموت لكنت بك مسروراً ولولا ما نصير إليه من طيف القبور لقرت بالدنيا أعيننا .

الأمور التى تذكر بالموت :

١ — حضور مجالس العلم ومدارسة قصص الصالحين من السابقين .

٢ — مشاهدة المحتضرين : فإن النظر إلى الميت ومشاهدة سكراته ونزعاته، وتأمل صورته عند الموت وبعده كل ذلك يذكر العبد بالموت ويجعله يشمر للاستعداد له . فقد روى أن الحسن البصرى — رحمه الله— دخل على مريض يزوره فوجده يحتضر فنظر إليه، وإلى ما نزل به من كرب وشدة، فرجع إلى أهله، بغير اللون الذى خرج به من عندهم، فقالوا له : الطعام يرحمك فقال : يا أهلاه عليكم بطعامكم وشرابكم فوالله لقد رأيت مصرعاً لا أزال أعمل له حتى ألقاه .

---

(١) رواه ابن ماجه : الزهد (٤٢٥٩)، وحسنه الألبانى لطرقه، وهو رقم ١٣٨٥ فى الصحيحة .

٣ – زيارة القبور:

يقول رسول الله ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها» [(١)].

ويقول: «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة» [(٢)].

وهذان الحديثان – وغيرهما – يفيدان جواز زيارة القبور للرجال والنساء – بآداب مخصوصة – إذا كان الغرض من الزيارة الاعتبار والاتعاظ.

فالقلوب تعتريها القسوة، وتنتابها الغفلة، فلابد لها من دواء يزيل صدأ الغفلة، وغبار القسوة، ومن أهم ما يصنع بها ذلك زيارة القبور.

يقول مالك بن دينار – رحمه الله –: أتيت القبور على سبيل الزيارة والتذكار والتفكر في الموت والاعتبار، فتمنيت من يخبرني عنهم بخبر، أو يقص لي من آثارهم بعض أثر، فقلت:

أتيت القبور فناديتها ... فأين المعظم والمحتقر

وأين المذل بسلطانه ... وأين العزيز إذا ما افتخر

قال: فنوديت من بين القبور:

تفانوا جميعاً فلا مخبر ... وماتوا جميعاً وصاروا عبر

وعادوا إلى ملك عادل ... عزيز مطاع إذا ما أمر

تروح وتغدو بنات الثرى ... فتمحو محاسن تلك الصور

فيا سائلي عن أناس مضوا ... أما لك فيما مضى معتبر

قال: فرجعت أبكي الدموع الغزار، واعتبرت بذلك أي اعتبار.

فزيارة القبور تجعل الإنسان يذكر أشكال أقرانه الذين مضوا قبله، فيتذكر

---

(١) رواه مسلم: كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه – عز وجل – في زيارة قبر أمه، وأبو داود: كتاب الجنائز، باب في زيارة القبور حديث رقم (٣٢٣٥) والترمذي في: كتاب الجنائز (١٠٥٤)، والنسائي: الجنائز (٤ / ٨٩).

(٢) رواه ابن ماجة (١٥٦٩) الجنائز – عن أبي هريرة رضي الله عنه.

موتهم ومصارعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم، ويتأمل كيف محا التراب حُسن صورهم، كيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم، وكيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم، وخلت منهم مجالسهم وانقطعت آثارهم، فيناديهم بلسان حاله قائلاً:

أحبابنا فارقتمونا فأوحشت قلوب ... لنا من بعدكم وديار
فكم تذاكرنا محاسن من قد مضى ... فجاءت دموع للفراق غزار
قضوا وقضيتم ثم نقضى فلا بقا ... لحى وكاسات المنون تدار
وكنا وإياكم نزور مقابراً ... ومتم فزرناكم وسوف نزار

أحاديث تمنع النساء من زيارة القبور:

هناك أحاديث تزجر النساء عن زيارة القبور: مثل حديث أبى هريرة:
«أن رسول الله ﷺ لعن زوارات القبور» (١).

أحاديث تفيد الإذن للنساء بالزيارة:

ومنها الحديثان السابقان، إذ أن الخطاب فيها عام للرجال والنساء معاً.

ومنها: حديث عائشة - رضى الله عنها - قالت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟ - أى إذا زرت القبور - قال: «قولى: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا - إن شاء الله - بكم لاحقون» (٢).

ومنها: حديث أنس - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ مر بامرأة تبكى عند قبر فقال: «اتقى الله واصبرى» فقالت: إليك عنى فإنك لم تصب بمثل مصيبتى.......» (٣).

فأنكر عليها الجزع ولم ينكر عليها الزيارة.

---

(١) رواه الترمذى فى الجنائز (١٠٥٦) وقال: حسن صحيح، وابن ماجة (١١٥٧٦)، وأحمد (٢/٣٣٧).
(٢) رواه مسلم فى الجنائز (٩٧٤)، والنسائى (٤/٩٣)، وأحمد (٦/٢٢١).
(٣) متفق عليه، كما فى اللؤلؤ والمرجان، حديث رقم (٥٣٣).

الجمع بين أحاديث المنع وأحاديث الإذن :

يمكن الجمع والتوفيق بين أحاديث المنع وأحاديث الإذن بحمل اللعن المذكور في الحديث على المكثرات من الزيارة – كما قال القرطبي – لما تقتضيه الصيغة « زوارات » من المبالغة، قال : ولعل السبب ما يفضي إليه ذلك من تضييع حق الزوج، والتبرج، وما ينشأ من الصياح ونحو ذلك .

قلت : لعل حكمة النهي عن زيارة القبور في البداية قرب عهدهم بالجاهلية فلما أن استقر الإسلام في القلوب ونبذ الناس ما كان من أمر الجاهلية، جاء نسخ الحكم بالنهي عن الزيارة، فإذا راعت النساء آداب الزيارة تحققت الحكمة منها وهي التذكير بالآخرة، وإلا حرمت الزيارة في حقهن لما يكون فيها من مخالفات شرعية .

هل يجوز زيارة قبور الكفار والظالمين؟

لما كان المقصود من الزيارة الاعتبار والتذكر، جاز زيارة قبور الكفرة والظالمين، ولكن يستحب البكاء عند المرور بقبورهم ومصارعهم، لما جاء عن ابن عمر – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه – لما وصلوا الحجر (ديار ثمود) « لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما أصابهم » (١) .

آداب زيارة القبور :

* أن يقصد الزائر بزيارته العظة والاعتبار .

* أن يُعمل الفكر ويوقظ القلب بالتدبر ولا ينشغل عن ذلك بشيء .

* أن يستقبل وجه الميت ويسلم عليه ويدعو له، ومن ذلك ما رواه بريدة – رضي الله عنه – كان النبي ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم :

---

(١) رواه البخاري، ورواه مسلم : كتاب الزهد، باب النهي عن الدخول على أهل الحجر إلا من يدخل باكياً (صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٨ ص ١١٠ : ١١١) .

« السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، أنتم فرطنا ونحن لكم تبع، ونسأل الله لنا ولكم العافية » [1].

* أن يتجنب المخالفات الشرعية التى يقع فيها كثير من الناس، ومنها: الجلوس على القبر، لطم الخدود، وشق الجيوب، والدعاء بدعوى الجاهلية، التمسح بالأضرحة وتقبيلها، الاستعانة بأصحاب القبور، وطلب قضاء الحوائج منهم، والتوجه إليهم بالاستغاثة والتوسل.

* أن تتجنب المرأة التبرج والتعطر والذهاب وحدها إلى القبور.

* ألا تكثر النساء من الزيارة إذ أن ذلك يضيع حق الزوج والأولاد.

* * *

الأعمال بالخواتيم

يقول الله تعالى: ﴿ ... وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

يقول صاحب الظلال – رحمه الله – : « ويالها من صورة رهيبة مخيفة للقدرة القاهرة اللطيفة « يحول بين المرء وقلبه » فيفصل بينه وبين قلبه؛ ويستحوذ على هذا القلب ويحتجزه، ويصرفه كيف شاء، ويقلبه كما يريد. وصاحبه لا يملك منه شيئاً وهو قلبه الذى بين جنبيه! إنها صورة رهيبة حقاً؛ يتمثلها القلب في النص القرآني، ولكن التعبير البشرى يعجز عن تصوير إيقاعها في هذا القلب، ووصف هذا الإيقاع فى العصب والحس! إنها صورة تستوجب اليقظة الدائمة، والحذر الدائم، والاحتياط الدائم. اليقظة لخلجات القلب وخفقاته ولفتاته؛ والحذر من كل هاجسة فيه وحمل ميل مخافة أن يكون انزلاقاً؛ والاحتياط الدائم للمزالق والهواجس.. والتعلق الدائم بالله – سبحانه – مخافة أن يقلب هذا القلب فى سهواته، أو غفلة من غفلاته، أو دفعة من دفعاته.. ولقد

(١) رواه مسلم: كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها (٩٧٥)، ورواه النسائى فى الجنائز (٤ / ٩٤)، باب الأمر بالاستغفار للمؤمنين.

كان رسول الله ﷺ وهو رسول الله المعصوم يكثر من دعاء ربه : « اللهم يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » فكيف بالناس، وهم غير مرسلين ولا معصومين؟!

إنها صورة تهز القلب حقاً؛ ويجد لها المؤمن رجفة فى كيانه حين يخلو إليها لحظات، ناظراً إلى قلبه الذى بين جنبيه، وهو فى قبضة القاهر الجبار؛ وهو لا يملك منه شيئاً، وإن كان يحمله بين جنبيه ويسير ! » (١) انتهى.

وعن أبى عبد الرحمن عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال : «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات : يكتب رزقه وأجله وعمله، وشقى أم سعيد، فوالله الذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » (٢) .

وكان من السلف من يشتد خوفه من سوء الخواتيم، ومنهم من كان يشتد خوفه وقلقه من ذكر السوابق.

* وقد روى أن حذيفة بن اليمان – رضى الله عنه – قال عند احتضاره لابن مسعود – رضى الله عنه – : قم فانظر أى ساعة هى؟ فقام ابن مسعود ثم جاء فقال : قد طلعت الحمراء – يعنى الشمس – فقال حذيفة : أعوذ بالله من صباح إلى النار.

وروى أن أبا هريرة بكى عند موته ثم قال : « والله ما أبكى حزناً على الدنيا ولا جزعاً من فراقكم ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربى بجنة أو نار.

(١) فى ظلال القرآن جـ٣ ص ١٤٩٥

(٢) رواه البخارى : كتاب القدر (جـ ١١ / ٦٥٩٤)، ورواه مسلم : كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمى فى بطن أمه.

* قالت عائشة - رضى الله عنها - كان النبى ﷺ يكثر أن يقول: « يامقلب القلوب ثبت قلبى على طاعتك » فقلت: يارسول الله: إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء فهل تخشى؟ قال: « وما يؤمننى يا عائشة وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الجبار إذا أراد أن يقلب قلب عبده قلبه ».

* وروى أنه لما نزل الموت بحذيفة جزع جزعاً شديداً وبكى بكاءً كثيراً فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ما أبكى أسفاً على الدنيا، بل الموت أحب إلىَّ ولكنى لا أدرى علام أقدم؟ على رضى أم على سخط؟

* وكان سفيان الثورى - رحمه الله - يشتد قلقه من السوابق والخواتيم، فكان يبكى ويقول: أخاف أن أكون فى أم الكتاب شقياً ويبكى ويقول: أخاف أن أسلب الإيمان عند الموت.

* وكان مالك بن دينار يقوم طول ليله قابضاً على لحيته ويقول: يارب قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار، ففى أى الدارين منزل مالك؟

* يقول حاتم الأصم - رحمه الله - : من خلا قلبه من ذكر أربعة أخطار فهو مغتر فلا يأمن الشقاء: الأول: خطر يوم الميثاق حيث قال: هؤلاء فى الجنة ولا أبالى وهؤلاء فى النار ولا أبالى، فلا يعلم فى أى الفريقين كان. والثانى: حين خلق فى ظلمات ثلاث، فنادى الملك بالشقاوة والسعادة، ولا يدرى أمن الأشقياء هو أم من السعداء.

والثالث: ذكر هول المطلع، فلا يدرى أيبشر برضا الله أم بسخطه.

والرابع: يوم يصدر الناس أشتاتاً، فلا يدرى أى الفريقين يسلك به.

* وقيل لإبراهيم بن أدهم - رحمه الله - اجلس إلينا تحدثنا. قال: حتى أفرغ من ثلاث: قيل: وما هى؟ قال: الأولى: لما نزل الملك لتصويرى فى الرحم وقال: يارب أشقى أم سعيد؟ فما أدرى ما كان الجواب؟

الثانية: حينما ينزل الملك لقبض روحى ويقول: يارب: على الإيمان أم على الكفر؟ فما أدرى ما يكون الجواب؟

الثالثة: لما يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وينادى المنادى: ياأهل الجنة: خلود بلا موت، وياأهل النار: خلود بلا موت، فما أدرى مع أى الفريقين أكون.

*** علامات سوء الخاتمة:**

اعلم أن سوء الخاتمة لا يكون إلا لمن استقام ظاهره، واعوج باطنه، فخطاب خارجه وخبث باطنه.

ففى الصحيحين عن سهل بن سعد أن النبى ﷺ التقى هو والمشركون وفى أصحابه رجل لا يدع شاذة ولا فاذة إلا أتبعها يضربها بسيفه، فقالوا: ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان، فقال رسول الله ﷺ هو من أهل النار، فقال رجل من القوم: أنا أصاحبه فاتبعه، فجرح الرجل جرحاً شديداً فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه على الأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل على نفسه فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله، وقص عليه القصة، فقال رسول الله ﷺ إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة »[1] .

يقول ابن رجب – رحمه الله –: وقوله: فيما يبدو للناس إشارة إلى أن باطن الأمر يكون بخلاف ذلك وإن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس، إما من جهة عمل سيء ونحو ذلك، فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت، وكذلك قد يعمل الرجل عمل أهل النار وفى باطنه خصلة خفية من خصال الخير فتغلب عليه تلك الخصلة فى آخر عمره فتوجب له حسن الخاتمة »[2] .

ولا يخفى على عاقل أن كثرة الذنوب والمعاصى، والإصرار على ذلك دون

---

(١) رواه البخارى، ورواه مسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمى فى بطن أمه ص ١٩٩ شرح النووى.

(٢) جامع العلوم والحكم ص ٥٣

توبة، واستصغار الذنوب وتحقيرها، والفرحة والمجاهرة بها، كل هذه الأمور قد تورث سوء الخاتمة، إذ أن الموت قد يبغت الإنسان على هذه الحال.

ولا شك أن هذه الأمور تفسد القلب وتصرفه عن حب الطاعة والقيام بها ولا يعنى ذلك أن يتكل أهل الطاعة على ذلك ويأمنوا مكر الله.

يقول القرطبى - رحمه الله - قال العلماء: «وإذا كانت الهداية إلى الله معروفة، والاستقامة على مشيئته موقوفة، والعاقبة مغيبة، والإرادة غير مغالبة، فلا تعجب بإيمانك وعملك وصلاتك وصومك وجميع قربك، فإن ذلك وإن كان من كسبك فإنه من خَلق ربك وفضله الدارّ عليك وخيره، فمهما افتخرت بذلك، كنت كالمفتخر بمتاع غيره، وربما سلب عنك فعاد قلبك من الخير أخلى من جوف البعير، فكم من روضة أمست وزهرها يانع عميم. فأصبحت وزهرها يابس هشيم، إذ هبت عليها الريح العقيم. كذلك العبد يمسى وقلبه بطاعة الله مشرق سليم، فيصبح وهو بمعصيته مظلم سقيم. ذلك فعل العزيز الحكيم الخلاق العليم»(١).

*** حسن الظن بالله:**

يعيش العبد فى الدنيا بين خوفه من ربه ورجائه رحمته، حتى إذا كان وقت الاحتضار غلب عليه رجاؤه فى الله وحسن ظنه به.

يقول جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل»(٢).

وحسن الظن بالله عند الموت يكون نتاج عمل وسعى وإلا فهو أمنية فارغة فالرجاء فى رحمة الله يتطلب عملاً يقرب المرء من هذه الرحمة، مثل الإيمان والهجرة، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والدعوة إلى الله، يقول

---

(١) التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة ص ٤٤

(٢) رواه مسلم (١٧ / ٢٠٩) صفة الجنة، ورواه أبو داود (٢٠٩٧) الجنائز.

تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨].

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦].

ويقول ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله» (١).

ولما حضرت الوفاة الجنيد – رحمه الله – أخذ يقرأ القرآن حتى ختم، فقيل له يا أبا القاسم: فى مثل هذه الحالة؟!

فقال: ومن أولى بهذا منى والآن تطوى صحيفتى؟!

ولما حضرت محمداً بن كعب القرظى الوفاة، وكان غنياً، سأله أصحابه: ماذا تركت لأولادك من المال؟ فقال: ادخرت مالى لنفسى عند ربى وادخرت ربى لأولادى.

كراهية تمنى الموت:

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: «قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت إما محسناً فلعله يزداد، وإما مسيئاً فلعله يستعتب» (٢).

وعن أنس – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه (أى فى دنياه) فإن كان لابد فاعلاً فليقل: اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى» (٣).

* * *

(١) رواه ابن ماجة من حديث شداد بن أوس (٤٢٦٠)، ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى (٤/ ٢٥١).

(٢) رواه البخارى (١٠/ ١٢٧)، ومسلم (١٧/ ٨) بمعناه، والنسائى (٤/ ٣١٢) الجنائز.

(٣) رواه البخارى ومسلم.

سكرات الموت

يقول الله تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق: ١٩].

ويقول تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤ – ٣٥].

فهذه سنة الله تعالى مع جميع خلقه – حتى حبيبه ﷺ – .

يقول الغزالى رحمه الله: (اعلم أنه لو لم يكن بين يدى العبد المسكين كرب ولا حول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها لكان جديراً بأن يتنغص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره، ويفارقه سهوه وغفلته، وحقيقاً بأن يطول فيه فكره، ويعظم له استعداده، لاسيما وهو فى كل نفس بصدده، كما قال بعض الحكماء: كرب بيد سواك لا تدرى متى يغشاك) انتهى.

وتقول السيدة عائشة – رضى الله عنها – أن رسول الله ﷺ – كانت بين يديه ركوة – أو علبة – فيها ماء، فجعل يُدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه، ويقول لا إله إلا الله إن للموت سكرات) [1].

ورُوى أن الموت أشد من ضرب بالسيوف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض.

الكفار فى سكرات الموت :

يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [الأنفال: ٥٠ – ٥١].

---

(١) رواه البخارى.

وضرب الملائكة لهم على الوجوه والأدبار فيه ما فيه من المهانة والإذلال وكسر لأنوفهم وكبريائهم الذى منعهم من الإيمان بالله ورسوله، فضلاً عن الإيلام الناتج عن ضرب البدن. وكل ذلك بما قدمت أيديهم من محاربة الله ورسوله والمؤمنين.

الظالمون فى سكرات الموت:

يقول الله تعالى: ﴿ .... وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ * وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣ – ٩٤].

وهاتان الآيتان تصوران حالة الظالمين – المشركين – فى سكرات الموت إذ الملائكة يضربونهم، ويذيقونهم الذل والهوان بما كانوا يفترون على الله غير الحق، وبما كانوا يستكبرون.

المؤمنون فى سكرات الموت:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ – ٣٢].

فهى البشرى تزفها الملائكة للمؤمنين فى سكرات الموت، وبعده، تؤمنهم من الخوف، وتطمئنهم من القلق والحزن، وتؤنسهم بمصاحبتهم، وتشوقهم إلى الجنة ونعيمها، وتبشرهم بمغفرة الله ورحمته.

ويقول تعالى: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [يونس: ٦٢ – ٦٤].

ويقول تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ويقول تعالى: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢].

يقول عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه –: إذ جاء ملك الموت يقبض روح المؤمن قال: ربك يقرئك السلام.

وعن عبادة بن الصامت – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، قالت عائشة – أو بعض أزواجه – إنا لنكره الموت قال: ليس ذلك، ولكن المؤمن إذ حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه. وإن الكافر إذا حُضر بشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله، وكره الله لقاءه» (١).

وفى رواية أخرى للبخارى ومسلم والترمذى والنسائى «إذا شخص البصر وحشرج الصدر واقشعر الجلد وتشنجت الأطراف فعند ذلك من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» (٢).

وقيل: فتح عبد الله بن المبارك عينيه عند الوفاة وضحك وقال: لمثل هذا فليعمل العاملون.

* * *

(١) رواه البخارى: كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه.
(٢) رواه البخارى ومسلم.

حالة الاحتضار

يقول الله تعالى: ﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٦ - ٣٠].

وحيث تبلغ الروح التراقى يكون النزع الأخير، والحاضرون حول المحتضر يتلمسون الحيل، والوسائل، والرقى، والطب، لعلهم يخففون عنه، فيعيش سنة أو سنتين، أو يوماً أو يومين أو ساعة أو ساعتين، ولكن هيهات.. هيهات.

يصف الله عجز الحاضرين، فيقول تعالى: ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ * فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٩٤].

* * *

صور من أحوال المحتضرين

* احتضار أبى بكر الصديق (رضى الله عنه):

لما احتضر أبو بكر - رضى الله عنه - جاءت عائشة - رضى الله عنها - فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى
إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذا، ولكن قولى:

« وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد » انظروا ثوبيَّ هذين فاغسلوهما وكفنوني فيهما، فإن الحي إلى الجديد أحوج من الميت.

وقالت عائشة - رضي الله عنها - عند موته:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه

ربيع اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر: ذاك رسول الله ﷺ.

ودخلوا عليه فقالوا: ألا ندعو لك طبيباً ينظر إليك؟

قال: قد نظر إلى طبيبي، وقال: إني فعال لما أريد.

* **احتضار عمر بن الخطاب (رضى الله عنه):**

لما حضرت الوفاة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كان يبكى فدخل عليه عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - وقال له: يا أمير المؤمنين أبشر بالجنة. لقد آمنت برسول الله يوم كفر به الناس، ونصرته يوم خذله الناس، وبشرك الرسول بالجنة ومات الرسول ﷺ وهو راض عنك، ولم يختلف على خلافتك اثنان ومت شهيداً فأبشر بالجنة. فقال له عمر: يا ابن عباس أعد هذا الكلام مرة أخرى فأعاده ابن عباس، فقال له عمر: والذى بعث محمداً بالحق لو كانت لى الدنيا وما فيها لافتديت بها من هول المطلع عند سكرات الموت.

* **احتضار الشافعي - رضى الله عنه -:**

دخل المزنى على الشافعي - رحمهما الله - فى مرضه الذى توفى فيه فقال له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلاً، وللإخوان مفارقاً، ولسوء عملى ملاقياً، ولكأس المنية شارباً، وعلى الله تعالى وارداً، ولا أدرى: أروحى تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها، ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى

جعلت رجائى نحو عفوك سلماً

تعـــاظمنى ذنبى ، فلمـــا قـــرنتـــه
بعــفــوك ربى ، كـــان عــفــوك أعظمـــا
فـــمـــا زلتَ ذا عـــفـــو عن الذنب لم تزل
تجـــود وتعـــفـــو منة وتكرمـــا

*** احتضار عبد الملك بن مروان :**

لما حضرته الوفاة قال أشرفوا بى على الغوطة (فى دمشق) ففعلوا فرأى غسالاً يلوى ثوباً بيده، ثم يضرب به المغسلة، فقال : ليتنى كنت غسالاً آكل من كسب يدى يوماً بيوم ولم آل من أمر الدنيا شيئاً، فبلغ ذلك أبا حازم – التابعى – فقال : الحمد لله الذى جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه، وإذا حضرنا الموت لم نتمن ما هم فيه .

*** احتضار عمر بن عبد العزيز – رضى الله عنه – :**

لما حضرته الوفاة بكى، فقيل له : ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ أبشر، فقد أحيا الله بك سنناً، وأظهر بك عدلاً، فبكى ثم قال : أليس أوقف فأسأل عن أمر هذا الخلق، فوالله لو عدلت فيهم لخفت على نفسى ألا تقوم بحجتها بين يدى الله . . فكيف بكثير مما صنعنا؟! وفاضت عيناه، فلم يلبث إلا يسيراً حتى مات .

*** احتضار محمد بن المنكدر (رضى الله عنه) :**

لما حضرته الوفاة جزع جزعاً شديداً فقيل له : لم تجزع؟

قال : أخشى آية من كتاب الله، وهى قوله تعالى :

﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر : ٤٧] .

فأنا أخشى أن يبدو لى من الله ما لم أحتسب .

* * *

ما يسن عند الاحتضار

١ – يستحب أن يحضر الميت الصالحون وأهل الخير حالة موته ليذكروه، ويدعوا، لحديث أم سلمة – رضي الله عنها – قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيراً فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون» (١).

ويستحب لهم أن يحدثوه بالرخص والرجاء ليحسن ظنه بالله.

٢ – تلقين المحتضر «لا إله إلا الله».

وتلقينه الشهادة يكون بالنطق بها بصوت مسموع ليذكره بها فيقولها، فإذا قالها مرة فلا يعاود التلقين ما لم يتكلم بكلام آخر بعدها.

عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله» (٢).

٣ – توجيهه إلى القبلة على شقه الأيمن، لحديث أبي قتادة: أن النبي ﷺ لما قدم المدينة، سأل عن البراء بن معرور؟ فقالوا: توفي وأوصى بثلث ماله لك، وأن يوجه للقبلة لما احتضر. فقال ﷺ: «أصاب الفطرة، وقد رددت ثلث ماله على ولده» (٣).

٤ – قراءة سورة يس: لما رُوي من حديث معقل بن يسار – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «يس قلب القرآن، لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له، واقرؤوها على موتاكم» (٤).

---

(١) رواه مسلم: كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المريض والميت وإغماض الميت.

(٢) رواه مسلم: كتاب الجنائز، باب تلقين الموتى لا إله إلا الله، ورواه الترمذي: كتاب الجنائز، باب ما جاء في تلقين المريض عند الموت، حديث رقم (٩١٦)، ورواه أبو داود: كتاب الجنائز، باب في التلقين، حديث رقم (٣١١٧)، ورواه النسائي: في كتاب الجنائز، باب تلقين الميت (٤/٥).

(٣) رواه الحاكم وصححه.

(٤) رواه أبو داود: كتاب الجنائز، باب القراءة على الميت، حديث رقم (٣١٢١)، ٣/١٩١ ورواه ابن ماجة: كتاب الجنائز، باب (٤)، ما جاء فيما يقال عند المريض إذا حضر، (١٤٤٨) ورواه أحمد في مسنده (٥/٢٦ – ٢٧).

٥ – تغميض عينيه إذا مات، لحديث أم سلمة، أن رسول الله ﷺ دخل على أبى سلمة، وقد شق بصره فأغمضه ثم قال:

« إن الروح إذا قبض تبعه البصر » [١].

ومعناه: أن البصر ينظر إلى الروح أين يذهب؛ والحكمة من التغميض أن لا يقبح منظره لو ترك إغماضه.

٦ – تسجيته (تغطيته)، فعن عائشة – رضى الله عنها – أن النبى ﷺ حين توفى سُجى ببرد حبرة » [٢].

٧ – المبادرة بتجهيزه، إذا تحقق موته. فيسرع وليه بغسله ودفنه مخافة أن يتغير.

٨ – قضاء دينه: لحديث أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ – قال: « نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه » [٣].

أى لا يحكم له بنجاة ولا بهلاك؛ هذا فيمن له مال، وأما مَن لا مال له ومات عازماً على القضاء قضى الله عنه.

* * *

---

(١) رواه مسلم: كتاب الجنائز، باب (٤) فى إغماض الميت ٢ / ٦٣٤، ورواه الترمذى: كتاب الجنائز، باب ما جاء فى تلقين المريض عند الموت والدعاء له. حديث رقم (٩٧٧)، ورواه أبو داود: كتاب الجنائز، باب ما يستحب من تطهير ثياب الميت عند الموت، حديث رقم (٣١١٣٤ – ٣١١٣٥) ٣ / ١٩٠، ورواه النسائى: كتاب الجنائز، باب كثرة ذكر الموت ٤ / ٤ – ٥

(٢) رواه البخارى: كتاب الجنائز، باب الثياب البيض للكفن، حديث رقم (١٢٦٤)، ورواه مسلم: كتاب الجنائز، باب (١٤) تسجية الميت ٢ / ٦٥١

(٣) رواه الترمذى: كتاب الجنائز، باب ما جاء عن النبى ﷺ أنه قال: نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه، حديث رقم (١٠٧٨ – ١٠٧٩)، ورواه ابن ماجة: كتاب الصدقات، باب (١٢) التشديد فى الدين، حديث رقم (٢٤١٣) ٢ / ٨٠٦

حكم البكاء على الميت

يجوز البكاء على الميت، إذا خلا البكاء من الصراخ والنواح ودعوى الجاهلية، وفى الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يعذب بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا أو يرحم» (١) وأشار إلى لسانه.

فإن أوصى الميت – قبل موته – بالصراخ والنواح عذب بفعل ذلك عليه، لحديث المغيرة بن شعبة – رضى الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نيح عليه فإنه يعذب بما نيح عليه»(٢).

وينبغى على المسلم أن يهىء أهله لتلقى أقدار الله بالصبر والرضا، كما ينبغى عليه أن يوصى ألا يُفعل عليه شىء من أمر الجاهلية، وذلك حتى يكون بريئاً من ذلك إذا حدث بعد وفاته.

* * *

---

(١) رواه البخارى: كتاب الجنائز، باب البكاء عند المريض (٣ / ١٣٠٤).
(٢) رواه البخارى: كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت (٣ / ١٢٩١).

الإحداد على الميت

والإحداد: هو ترك ما تتزين به المرأة، من الكحل والثياب وغيرها.

ويجوز للمرأة أن تحد على قريبها الميت ثلاثة أيام – ما لم يمنعها زوجها – ويحرم عليها أن تحد عليه فوق ذلك؛ فإذا كان الميت زوجها وجب عليها أن تحد أربعة أشهر وعشرا، لحديث أم عطية – رضى الله عنها – «لا تحد امرأة على ميت فوق ثلاث إلا على زوجها فإنها تحد عليه أربعة أشهر وعشراً» (١).

وذلك مراعاة لحقه، ووفاءً له.

هل يجوز إعداد الكفن والقبر قبل الموت؟

نعم: يجوز ذلك، يقول الإمام أحمد: «لا بأس أن يشترى الرجل موضع قبره، ويوصى أن يدفن فيه» وروى من عثمان وعائشة وعمر بن عبد العزيز – رضى الله عنهم – أنهم فعلوا ذلك» (٢).

* * *

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) نقلاً عن كتاب «فقه السنة» للشيخ السيد سابق – رحمه الله – .

الفصــــل الثــالث

تجهــيز الميــت

* أولاً : غسل الميت .
* ثانياً : تكفين الميت .
* ثالثاً : الصلاة على الميت .
* حمل الجنازة والسير بها .
* رابعاً : دفن الميت .

تجهيز الميت
(أولا) غسل الميت

حكمه: غسل الميت فرض كفاية - عند الجمهور - فإذا قام به البعض سقط عن الآخرين المكلفين.

من الذى يجب غسله؟

يجب غسل كل ميت مسلم لم يقتل فى معركة بأيدى الكفار.

غسل بعض الميت: ذهب كثير من العلماء إلى القول بغسل بعض الميت المسلم منهم الشافعى وأحمد وابن حزم.

الشهيد لا يغسل: الشهيد الذى قتل بأيدى الكفار في المعركة لا يغسل ويكفن فى ثيابه الصالحة للكفن، ويكمل ما نقص منها، وينقص منها ما زاد على كفن السنة، ويدفن فى دمائه، ولا يغسل شىء منها، أما القتلى الذين أطلق عليهم الشارع لفظ الشهداء، كالمطعون، والغريق، والمبطون، والذى يموت تحت الهدم، وصاحب الحرق، والمرأة التى تموت عند الولادة؛ فهؤلاء يغسلون ويصلى عليهم.

هل يجوز للمسلم أن يغسل قريبه الكافر؟

لا يجب على المسلم أن يغسل الكافر، ولا يكفنه، ولا يدفنه، إلا أن يخاف عليه الضياع فيجب عليه أن يواريه.

شروط المغسل: التغسيل عبادة لا تصح إلا ممن تصح منهم العبادة، فيشترط فى المغسل: الإسلام، العقل، التمييز.

ما ينبغى أن يكون عليه المغسل: ينبغى على المغسل أن يكون ثقة أميناً، صالحاً ليكتم ما يراه من سوء، وليفشى ما يراه من صلاح، وليتقن عملية التغسيل، وليترفق بالميت، وذلك لما رُوى أن رسول الله ﷺ قال: «ليغسل موتاكم المأمونون» [1].

---

(١) رواه ابن ماجة (١٤٦١) الجنائز.

الأولى بالتغسيل: إذا أوصى الميت بشخص معين يقوم بتغسيله فهو أولى بذلك من غيره، إذ أن إنفاذ الوصية واجب.

من يحضر الغسل: ينبغى ألا يحضر الغسل إلا من تدعو الحاجة إلى حضوره، كمن يصب الماء للمغسل، أو يساعده فى تحريك الميت، أو من يحضر لتعلم كيفية الغسل.

* * *

صفة الغسل

لو غسل الميت مرة واحدة بأن عم البدن كله بالماء مرة واحدة، لأجزأ، ولو كان جنباً أو حائضاً، والمستحب ما يلى:

* يستحضر المغسل النية، لأنه هو المخاطب بالغسل.

* يوضع الميت فوق مكان مرتفع، ويجرد من ثيابه ويوضع عليه ساتر يستر عورته - ما لم يكن صبياً - .

* يبدأ المغسل فيعصر بطن الميت عصراً رفيقاً لإخراج ما عسى أن يكون بها.

* يزيل ما على بدنه من نجاسة، على أن يلف على يده خرقة يمسح بها عورته، فإن لمس العورة حرام.

* ثم يوضئه وضوء الصلاة لقول رسول الله ﷺ : «ابدأن بميامنها ومواضع الوضوء منها» (١).

لكن لا يدخل الماء فى فمه وأنفه، بل يأخذ خرقة مبلولة فيمسح بها أسنانه ومنخريه، ليقوم مقام المضمضة والاستنشاق .

* ثم يغسله ثلاثاً بالماء والصابون، أو الماء القراح، مبتدأ باليمين، فإن

---

(١) رواه الجماعة، انظر إرواء الغليل (٣/١٦٣) حديث رقم ٧٠٤

رأى الزيادة على الثلاث غسله خمساً أو سبعاً، أو أكثر من ذلك، ففى حديث أم عطية – رضى الله عنها – قالت: «دخل علينا النبى ﷺ، ونحن نغسل ابنته، فقال: «اغسلنها ثلاثاً، أو خمساً، أو أكثر من ذلك، إن رأيتن ذلك، بماء وسدر واجعلن فى الآخيرة كافوراً أو شيئاً من كافور» فلما فرغنا آذناه، فألقى إلينا حقوه. فقال «أشعرنها» (١).

وفى رواية «ابدأن بميامنها ومواضع الوضوء منها».

وفى لفظ البخارى: «فضفرنا شعرها ثلاثة قرون فألقيناها خلفها».

* إذا فرغ من غسل الميت جفف بدنه بثوب نظيف، لئلا تبتل أكفانه، ثم يوضع عليه الطيب، ففى الحديث:

«إذا أجمرتم الميت فأوتروا» (٢).

* إذا كان الميت امرأة ندب نقض شعرها وغسل وأعيد تضفيره، وأرسل خلفها، كما تقدم فى حديث أم عطية.

* لو خرج من بطن الميت حدث بعد الغسل وقبل التكفين، فقد اتفق الفقهاء على وجوب غسل ما أصابه من نجاسة.

وأما عن إعادة الطهارة فقد اخُتلف فى ذلك ما بين موجب وغير موجب، وأوجب بعض الفقهاء إعادة الغسل.

* * *

---

(١) رواه البخارى: كتاب الجنائز، باب غسل الميت ووضوئه بالماء والسدر، حديث رقم (١٢٥٣) ٣/١٢٥، رقم ١٢٥٤ – ١٢٦٣، ورواه مسلم: كتاب الجنائز باب غسل الميت، ورواه أبو داود: الجنائز، باب كيف غسل الميت، حديث ٣١٤٢

ومعنى آذننى: أعلمننى، حقوه: المراد الإزار، أشعرنها إياه: ألففنها فيه، والسدر: ورق النبق، الكافور: نبت طيب.

(٢) رواه البيهقى، والحاكم وابن حبان وصححاه.

التيمم للميت

يجزىء التيمم، ويحل محل الغسل فى الحالات الآتية :

* إذا عُدم الماء، أو كان الجسم بحيث لو غسل لتهرى .

* المرأة تموت بين الرجال الأجانب عنها، يضع أحد الرجال خرقة على يديه ويضرب بهما وييممها .

* الرجل يموت بين النساء الأجنبيات عنه .

هل يجوز للمرأة أن تغسل زوجها ؟

نعم يجوز ذلك، تقول عائشة – رضى الله عنها – : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما غسل النبى ﷺ إلا نساؤه » (١) .

هل يجوز للرجل أن يغسل زوجته ؟

نعم يجوز، لقول رسول الله ﷺ لعائشة – رضى الله عنها – : « لو مت قبلى لغسلتك وكفنتك » (٢) .

وغسل على – رضى الله عنه – فاطمة – رضى الله عنها – ولم ينكره منكر فكان إجماعاً » (٣) .

* * *

---

(١) رواه ابن ماجه (١٤٦٤) الجنائز، وإسناده صحيح .

(٢) رواه ابن ماجة (١٤٦٥)، وصححه الألبانى (إرواء الغليل ٣ / ١٦٠ ، رقم ٧٠٠) .

(٣) رواه الدارقطنى والبيهقى، وحسنه الألبانى (إرواء الغليل ٣ / ١٦٢ ، رقم ٧٠١) .

(ثانياً) : تكفين الميت

حكمه: يجب أن يكفن الميت بعد تغسيله، بما يستر سائر جسده، فعن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن النبى ﷺ قال – فى الذى سقط عن راحلته – وهو واقف بعرفة – فمات «اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه فى ثوبين» (١).

فقوله ﷺ: «وكفنوه فى ثوبين» يدل على وجوب التكفين.

ما يستحب فى الكفن:

١ – أن يكون حسناً: لحديث جابر – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كفن أحدكم أخاه فليحسن كفنه» (٢).

والحسن يمثل حسن ذات الكفن، دون مبالغة، إذ أن ذلك منهى عنه، ويشمل الحسن حسن صفته بإن يكون ذا لون أبيض، لحديث ابن عباس – رضى الله عنهما – أن النبى ﷺ قال: «البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم» (٣).

ويشمل الحسن – كذلك – كيفية وضع الثياب على الميت.

٢ – أن يجمر، ويبخر، ويطيب.

٣ – أن يكون ثلاث لفائف للرجل، وخمس لفائف للمرأة، لحديث عائشة

---

(١) رواه البخارى: كتاب الجنائز، باب (٢٠) المحرم يموت بعرفة، رقم (١٨٤٩)، ورواه مسلم: كتاب الحج، باب ما يفعل بالمحرم إذا مات (٢/٨٦٥).

(٢) رواه مسلم: كتاب الجنائز، باب فى تحسين الكفن، ورواه أبو داود: كتاب الجنائز، باب فى الكفن، حديث رقم (٣١٥٠)، ورواه الترمذى: كتاب الجنائز، باب ما يستحب من الأكفان (٣/٣٢٠).

(٣) رواه الترمذى وصححه: كتاب الجنائز، باب ما يستحب من الأكفان حديث رقم (٩٩٤)، ورواه أبو داود فى كتاب الطب، باب فى الأمر بالكحل، حديث رقم (٣٨٧٨) ٤/٨، ورواه ابن ماجة فى كتاب الجنائز باب ما جاء فيما يستحب من الكفن [حديث رقم (١٤٧٢) ١/٤٧٣].

– رضى الله عنها – قالت: كفن رسول الله ﷺ فى ثلاثة أثواب يمانية بيض سَحولية من كرسف، ليس فيها قميص ولا عمامة» (١).

أما المحرم فإنه يكفن فى إحرامه، ردائه وإزاره فقط، ولا يطيب ولا يغطى رأسه، إبقاءً على إحرامه.

وأما الشهيد الذى قتل بأيدى الكفرة فى المعركة فإنه يكفن فى ثيابه الصالحة للكفن، ويكمل ما نقص منها، وينقص منها ما زاد على كفن السنة كراهة المغالاة فى الكفن: لا ينبغى أن يصل حسن الكفن إلى درجة المغالاة فى ثمنه – مباهاة وافتخاراً – إذ أن فى ذلك إضاعة للمال وتضييعاً للأحياء؛ قال أبو بكر – رضى الله عنه – حينما حضرته الوفاة «إن الحى أولى بالجديد من الميت، إنما هو للمهلة – القيح أو الصديد يسيل من الميت» (٢).

* * *

(ثالثاً): الصلاة على الميت

حكمها: صلاة الجنازة فرض كفاية، لأمر الرسول ﷺ بها، ففى حديث جابر بن عبد الله – رضى الله عنهما – يقول: قال رسول الله ﷺ: «قد تُوفى اليوم رجل صالح من الحبش، فهلم فصلوا عليه. قال: فصففنا، فصلى النبى ﷺ عليه ونحن صفوف» (٣).

فقوله ﷺ: «فهلم فصلوا عليه» يدل على وجوبها.

فضلها: عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «من

(١) رواه البخارى: كتاب الجنائز، باب (١٨) الثياب البيض للكفن (٣ / ١٣٥) ورواه مسلم: كتاب الجنائز، باب (١٣) فى كفن الميت، ومعنى سَحولية: بيض نقية، والكرسف هو القطن.

(٢) رواه البخارى.

(٣) رواه البخارى: كتاب الجنائز، باب (٥٤) الصفوف على الجنائز، رقم (١٣٢٠).

شهد الجنازة حتى يُصلى فله قيراط، ومن شهد حتى تدفن كان له قيراطان. قيل: وما القيراطان؟ قال: مثل الجبلين العظيمين » [1].

وأما عن فضلها بالنسبة للميت، فيقول رسول الله ﷺ: « ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً، لا يشركون بالله شيئا، إلا شفعهم الله فيه » [2].

شروطها: صلاة الجنازة كسائر الصلوات إذ يلزم لها كل ما يلزم لسائر الصلوات من طهارة، واستقبال القبلة، وستر العورة.

أركانها:

١ – النية: ومحلها القلب، والتلفظ بها غير مشروع.

٢ – القيام للقادر عليه: لأنها صلاة وجب القيام فيها.

٣ – التكبيرات الأربع: وذلك لحديث أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: « نعى النبى ﷺ إلى أصحابه النجاشيَّ، ثم تقدم فصفوا خلفه، فكبر أربعاً » [3].

ولا يشرع رفع اليدين فى التكبير – إلا فى التكبيرة الأولى على أنها تكبيرة إحرام، وكذلك لا يشرع رفع الصوت بالتكبير.

٤ – قراءة الفاتحة: لحديث طلحة بن عبد الله بن عوف – رضى الله عنه – قال: صليت خلف ابن عباس على جنازة، فقرأ فاتحة الكتاب فقال: « لتعلموا أنها سنة » [4].

---

(١) رواه البخارى: كتاب الجنائز، باب (٥٨) من انتظر حتى تدفن، رقم (١٣٢٥)، ورواه مسلم: كتاب الجنائز، باب (١٧) فضل الصلاة على الجنازة واتباعها.

(٢) رواه مسلم: كتاب الجنائز، باب من صلى عليه أربعون شفعوا فيه ٢ / ٦٥٥، ورواه أبو داود فى كتاب الجنائز، باب فضل الصلاة على الجنائز وتشييعها (٣ / ٢٠٣).

(٣) رواه البخارى: كتاب الجنائز، باب الصفوف على الجنازة، رقم (١٣١٨).

(٤) رواه البخارى: كتاب الجنائز، باب (٦٥) قراءة فاتحة الكتاب على الجنازة، حديث رقم (١٣٣٥)، ورواه الترمذى: كتاب الجنائز، باب ما جاء فى القراءة على الجنازة بفاتحة الكتاب، رقم (١٠٢٧).

٥ – الصلاة على النبى ﷺ : لما ثبت عنه ﷺ أنه قال : «إن السنة فى الصلاة على الجنازة أن يكبر الإمام، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى، ويقرأ فى نفسه، ثم يصلى على النبى ﷺ ويخلص الدعاء للجنازة فى التكبيرتين، ولا يقرأ فى شىء منهن، ثم يسلم سراً فى نفسه» (١).

٦ – الدعاء للميت؛ لما تقدم، ولقوله ﷺ : «إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء» (٢).

ومما ورد من الدعاء للميت، حديث عوف بن مالك – رضى الله عنه – قال : صلى رسول الله ﷺ على جنازة، فحفظت من دعائه «اللهم اغفر له، وارحمه، وعافه، واعف عنه، وأكرم نزله، ووسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله داراً خيراً من داره، وأهلاً خيراً من أهله، وأدخله الجنة، وقه فتنة القبر وعذاب النار» (٣).

٧ – السلام : وذلك لعموم حديث «وتحليلها التسليم» (٤).

كيفية صلاة الجنازة :

يقوم الإمام حذاء رأس الرجل، ووسط المرأة، فيقف والناس وراءه ثلاثة صفوف فأكثر، فيرفع يديه ناوياً الصلاة على الميت – أو الأموات إن تعددوا – قائلاً : الله أكبر، ثم يضع يده اليمنى على اليسرى، ويشرع فى قراءة الفاتحة، ثم يكبر ويصلى على النبى ﷺ، ثم يكبر ويدعو للميت، ثم يكبر ويدعو، ثم

---

(١) رواه الشافعى فى مسنده، ورواه الأثرم، وصححه الألبانى فى إرواء الغليل (٣ / ١٨٠) رقم ٧٣٣.

(٢) رواه أبو داود : كتاب الجنائز، باب الدعاء للميت، رقم (٣١٩٩)، ورواه ابن ماجة كتاب الجنائز (١ / ٤٨٠) رقم (١٤٩٧) ورواه ابن حبان وصححه، كتاب الجنائز باب (٢٢) حديث رقم (٧٥٤).

(٣) رواه مسلم : كتاب الجنائز، باب (٢٦) الدعاء للميت فى الصلاة، ورواه الترمذى مختصراً : كتاب الجنائز، باب ما يقول فى الصلاة على الميت، ورواه النسائى : كتاب الجنائز باب (٧٧) الدعاء (٤ / ٧٣).

(٤) رواه أبو داود والترمذى، وصححه الألبانى فى إرواء الغليل (٢ / ٢٨ ، رقم ٣٢٥).

يسلم. وإذا اجتمع أكثر من ميت صفوا واحداً بعد واحد ما بين الإمام والقبلة وكان أفضلهم مما يلى الإمام، ثم يصلى عليهم جميعاً صلاة واحدة.

المسبوق فى صلاة الجنازة :

ومن فاته شيء من التكبير فإذا شاء قضاه متتابعاً، وإن شاء ترك وسلم مع الإمام.

الصلاة على السقط : والسقط إذا لم يأت عليه أربعة أشهر فإنه لا يغسل ولا يصلى عليه، ويُلف فى خرقه، ويدفن، فإذا أتم أربعة أشهر واستهل - بصياح أو حركة - غُسل وصُلى عليه اتفاقاً، فإذا لم يستهل - وقد أتم أربعة أشهر - ففى تغسيله وتكفينه والصلاة عليه خلاف بين العلماء.

حكم من دفن ولم يصل عليه : من دفن ولم يصل عليه، صلى عليه وهو فى قبره.

* * *

حمل الجنازة والسير بها

يشرع فى حمل الجنازة عدة أمور، منها:

١ - تشييع الجنازة - وهو الخروج معها - وحملها.

٢ - الإسراع بها: لحديث أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «أسرعوا بالجنازة، فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه، وإن تك سوى ذلك فشر تضعونه عن رقابكم» [(١)].

٣ - المشى أمامها: لما رُوى من حديث سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه

---

(١) رواه البخارى: كتاب الجنائز، باب (٥١) السرعة بالجنازة حديث رقم (١٣١٥)، ورواه مسلم: كتاب الجنائز، باب (١٦) الإسراع بالجنازة.

– رضى الله عنه – أنه رأى النبى ﷺ وأبا بكر وعمر وهم يمشون أمام الجنازة »[1].

وأما الركوب عند تشييع الجنازة، فكرهه الجمهور إلا لعذر.

* * *

ما يكره مع الجنازة

يكره مع الجنازة عدة أمور منها :

١ – رفع الصوت بذكر أو قرآن أو غير ذلك، إذ أنه موطن اعتبار وتدبر وإعمال للفكر.

٢ – اتباع النساء لها : لحديث أم عطية – رضى الله عنها – قالت : « نهينا عن اتباع الجنائز، ولم يُعزم علينا » [2].

وقولها ولم يُعزم علينا، يدل على أن النهى للكراهة وإليه ذهب الجمهور .

٣ – الجلوس قبل أن توضع الجنازة لقوله ﷺ : « إذا رأيتم الجنازة فقوموا، فمن تبعها فلا يجلس حتى توضع » [3].

* * *

---

(١) أخرجه أبو داود : كتاب الجنائز، باب المشى أمام الجنازة، رقم (٣١٧٩)، ورواه الترمذى، كتاب الجنائز، باب ما جاء فى المشى أمام الجنازة (٣ / ٣٢٩)، ورواه النسائى ٤ / ٥٦ فى كتاب الجنائز، باب مكان الماشى من الجنازة، ورواه ابن ماجة فى كتاب الجنائز، باب (١٦) ما جاء فى المشى أمام الجنازة، حديث رقم (١٤٨٢).

(٢) رواه البخارى : كتاب الجنائز، باب اتباع النساء الجنازة حديث رقم (١٢٧٨)، ورواه مسلم : كتاب الجنائز، باب نهى النساء عن اتباع الجنائز.

(٣) رواه البخارى : كتاب الجنائز، باب من تبع جنازة فلا يقعد حتى توضع عن مناكب الرجال، حديث رقم (١٣١٠)، ورواه مسلم : كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة (٢ / ٦٦٠).

(رابعاً) : دفن الميت

حكمه: دفن الميت ومواراته فرض كفاية، وأقله حفرة تكتم رائحة الميت وتحرسه عن السباع بحيث يتعذر نبش مثلها غالباً.

وذلك لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ [عبس: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴾

[المرسلات: ٢٥، ٢٦]

ويجوز الدفن ليلاً، إذا كان لا يفوت بالدفن ليلاً شيء من حقوق الميت كحسن تكفينه، والصلاة عليه، فإذا كان يفوت بالدفن ليلاً بعض حقوق الميت فقد نهى الرسول ﷺ عن ذلك، فعن جابر بن عبد الله – رضى الله عنهما – أن النبى ﷺ خطب يوماً فذكر رجلاً من أصحابه قبض فكفن في كفن غير طائل وقبر ليلاً فزجر النبى ﷺ أن يقبر الرجل بالليل حتى يصلى عليه إلا أن يضطر إنسان إلى ذلك » (١).

توجيه الميت – فى قبره – إلى القبلة: من السنة أن يوضع الميت فى قبره على جنبه الأيمن ووجهه تجاه القبلة. ويقول واضعه: « بسم الله وعلى ملة رسول الله »، لما رُوى عن ابن عمر – مرفوعاً – « إذا وضعتم موتاكم فى القبور، فقولوا: بسم الله وعلى ملة رسول الله » (٢).

استحباب الدعاء للميت بعد الفراغ من الدفن:

يستحب الاستغفار والدعاء للميت بعد دفنه، لحديث عثمان – رضى الله

---

(١) رواه مسلم : كتاب الجنائز، باب تسجية الميت وتكفينه، ومعنى: غير طائل: أى غير كامل الستر.

(٢) رواه أبو داود: كتاب الجنائز، باب فى الدعاء للميت إذا وضع فى قبره، رقم (٣٢١٣)، ورواه الترمذى: كتاب الجنائز، باب ما يقول إذا أدخل الميت القبر، رقم (١٠٤٦)، ورواه ابن ماجة: كتاب الجنائز، باب ما جاء فى إدخال الميت قبره، رقم (١٥٥٠)، ورواه النسائى ورجح وقفه على ابن عمر – رضى الله عنهما –.

عنه – قال: كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل» (١).

حكم المشى فى المقابر بالنعال: عن أنس – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال: «العبد إذا وضع فى قبره وتولى وذهب أصحابه – حتى إنه ليسمع قرع نعالهم...» (٢).

استدل كثير من العلماء بهذا الحديث على جواز المشى بالنعلين بين المقابر، إذ أن الرسول ﷺ قاله وأقره، ولو كان مكروهاً لبيَّنه.

وقال ابن الجوزى: ليس فى الحديث سوى الحكاية عمن يدخل المقابر، وذلك لا يقتضى إباحة ولا تحريماً.

فيدل على كراهية المشى بالنعلين بين القبور حديث بشير بن الخصاصية – مولى رسول الله ﷺ «إن النبى ﷺ رأى رجلاً يمشى بين القبور وعليه نعلان سبتيان فقال: ياصاحب السبتيين، ويحك ألق سبتيك» فنظر الرجل فلما عرف رسول الله ﷺ خلعهما فرمى بهما» (٣).

قلت: يكره المشى بالنعلين بين القبور، إذا كان ذلك مظهراً من مظاهر الخيلاء والترفه والانغماس فى الدنيا ونسيان الآخرة، أما إذا خلا الأمر من ذلك، وخيف الشوك والأذى فلا كراهة.

حكم الجلوس على القبور:

إذا كان الجلوس على القبور لقضاء الحاجة فقد اتفق الفقهاء على تحريمه، أما إذا كان الجلوس لغير قضاء الحاجة ففيها عدة آراء:

---

(١) رواه أبو داود: كتاب الجنائز، باب الاستغفار عند القبر للميت فى وقت الانصراف، حديث رقم (٣٢٢١) ٣/٢١٥

(٢) رواه البخارى: كتاب الجنائز، باب (٦٧) الميت يسمع خفق النعال، رقم (١٣٣٨).

(٣) رواه أبو داود: كتاب الجنائز، باب المشى فى النعل بين القبور، رقم (٣٢٣٠)، والمراد بالسبتيين جلود البقر وكل جلد مدبوغ، وإنما قيل لها السبتية أخذاً من السبت وهو الحلق لأن شعرها قد حلق عنها. ولا فارق فى النهى بينهما وبين غيرهما إذ أن علة النهى واحدة.

الأول: أنه مكروه، وهذا مذهب الجمهور.

الثاني: أنه محرم، وهذا مذهب ابن حزم وجماعة من السلف.

الثالث: أنه مباح، وهذا مذهب ابن عمر - رضى الله عنهما - وأبى حنيفة، ومالك.

فعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس على قبر» (١).

حكم وضع الجريدة على القبر:

روى البخارى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ «أنه مر بقبرين يعذبان فقال: إنهما ليعذبان، وما يعذبان فى كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة. ثم أخذ جريدة رطبة فشقها بنصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة. فقالوا: يارسول الله لم صنعت هذا؟ فقال: لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا» (٢).

ففهم جمهور الصحابة من هذا أن وضع الجريد - وما يماثله - ليس مشروعاً فى كل القبور، وإنما فعله الرسول ﷺ فى قبور مخصوصة أطلعه الله على تعذيب أهلها، لذا فإن كبار الصحابة - كالخلفاء الأربعة - لم يفعلوه ولم يوص بوضعه أحد من الصحابة إلا بريدة الأسلمى، فلقد حمل الحديث على عمومه.

وبناءً على هذا فلا يشرع وضع الجريد ولا الزهور فوق القبر.

حكم طلاء المقابر بالحص والكتابة عليها:

عن جابر - رضى الله عنه - قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه» (٣).

---

(١) رواه مسلم: كتاب الجنائز، باب النهى عن تجصيص القبر والبناء عليه والجلوس عليه.

(٢) رواه البخارى: كتاب الجنائز، باب (٨١) الجريدة على القبر، حديث رقم (١٣٦١).

(٣) رواه مسلم: كتاب الجنائز، باب النهى عن تجصيص القبر والبناء عليه، ورواه =

فهذا الحديث اشتمل على النهى عن ثلاثة أمور :

الأول : تجصيص القبر : والمراد تبييضه بالجص وهو الجبس، ومثله زخرفته ونقشه، وهذا كله مكروه، كما قال جمهور الفقهاء.

الثانى : القعود على القبر : وقد سبق الإشارة إليه.

الثالث : البناء على القبر : كبناء القباب والسقائف والروضات ، كل هذا لا يشرع، وحمل الجمهور النهى على الكراهة، أما إذا كان البناء على القبر للمباهاة أو فى أرض مخصصة للدفن، أو موقوفة، فيحرم حينئذ البناء ويجب هدم ما بنى منه.

حكم الكتابة على القبور:

جاء فى لفظ النسائى للحديث السابق: «نهى أن يبنى على القبر أو يزاد عليه أو يجصص أو يكتب عليه» فالحديث يبين أن الكتابة على القبر غير مشروعة، وحمل الجمهور النهى على الكراهة، وقال الحنفية: لا بأس بالكتابة على القبر إن احتيج إليها.

والخلاصة : أن الكتابة إذا كانت لغير حاجة ككتابة القرآن، والشعر، ونحو ذلك فلا تشرع، وإذا كانت لحاجة أو عذر فلا بأس بها.

حكم قراءة القرآن عند القبر :

اختلف الفقهاء فى حكم قراءة القرآن عند القبر:

* أنها مستحبة لتحصل للميت بركة المجاورة، وذهب إلى ذلك الشافعى ومحمد بن الحسن، ومن المالكية القاضى عياض والقرافى.

= أبو داود : كتاب الجنائز، باب فى البناء على القبر، رقم (٣٢٢٥ - ٣٢٢٦)، ورواه الترمذى: كتاب الجنائز، باب ما جاء فى كراهية تجصيص القبور والكتابة عليها، حديث رقم (١٠٥٢)، ورواه النسائى ٤ / ٨٦ فى كتاب الجنائز، باب الزيادة على القبر ، وباب البناء على القبر، وباب تجصيص القبور.

* أنها لا بأس بها: وذهب إلى ذلك الإمام أحمد بن حنبل؛ قال القرطبى: قال محمد بن أحمد المروزى سمعت أحمد بن حنبل – رضى الله عنه – يقول: إذا دخلتم المقابر فاقرأوا بفاتحة الكتاب والمعوذتين وقل هو الله أحد، واجعلوا ذلك لأهل المقابر فإنه يصل إليهم» (١).

* أنها مكروهة: لأنها لم ترد بها السنة، وهذا رأى مالك وأبى حنيفة.

* * *

(١) التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة ص ٨٤

الفصــل الـرابـع
حيـاة البـرزخ

* سؤال القبر .
* القبر ووحشته .
* ضغطة القبر .
* صور من عذاب القبر .
* العمل الصالح ينفع صاحبه فى القبر .

سـؤال القبر

يجب أن يؤمن المسلم بكل ما أخبر به الرسول ﷺ ومن ذلك فتنة القبر وسؤال الملكين للإنسان – فى القبر – عن ربه ودينه ونبيه، ومن الأحاديث التى وردت فى ذلك :

الحديث الأول : عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه – وإنه ليسمع قرع نعالهم – أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان : ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ لمحمد ﷺ . فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة، فيراهما جميعاً »، وأما المنافق والكافر فيقال له : ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ فيقول : لا أدرى، كنت أقول ما يقول الناس. فيقال : لا دريت ولا تليت. ويضرب بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين » (١).

الحديث الثانى : عن البراء بن عازب – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : « إذا أقعد المؤمن فى قبره أتى ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت » قال البخارى – رحمه الله – حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة بهذا، وزاد « يثبت الله الذين آمنوا » نزلت فى عذاب القبر (٢).

الحديث الثالث : عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال : « اطلع النبى ﷺ على أهل القليب فقال : وجدتم ما وعد ربكم حقاً. فقيل له : تدعو أمواتاً؟ فقال : ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيبون » (٣).

---

(١) رواه البخارى : كتاب الجنائز، باب ما جاء فى عذاب القبر، حديث رقم (١٣٧٤).
(٢) رواه البخارى : كتاب الجنائز، باب ما جاء فى عذاب القبر، حديث رقم (١٣٦٩).
(٣) رواه البخارى : كتاب الجنائز، باب ما جاء فى عذاب القبر، حديث رقم (١٣٧٠) والمقصود بالقليب قليب بدر الذى وضع فيه القتلى من المشركين.

الحديث الرابع: عن زيد بن ثابت قال: بينما رسول الله ﷺ في حائط لبني النجار على بغلته ونحن معه إذ جادت به فكادت تلقيه، فإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة فقال: «من يعرف أصحاب هذه القبور؟ فقال رجل: أنا. قال: فمتى مات هؤلاء؟ قال: ماتوا في الإشراك. فقال: إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه ثم أقبل علينا بوجهه فقال: تعوذوا بالله من عذاب النار قالوا: نعوذ بالله من عذاب النار، قال تعوذوا من عذاب القبر، قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر قال: تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قال: تعوذوا بالله من فتنة الدجال، قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال» (١).

والمقصود بفتنة القبر ما يكون في الحياة البرزخية التي قال الله فيها: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

فكل من مات مستحقاً للعذاب فله نصيب منه قبر أو لم يقبر، فلو أكلته النار، أو السباع، أو غرق في البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى القبور.

ويجب على المسلم كذلك أن يؤمن بعذاب القبر ونعيمه لأن دلائل الكتاب والسنة تظاهرت على هذا الأمر: ومن ذلك:

أولاً: قوله تعالى في شأن آل فرعون: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥ – ٤٦].

فذكر الله تعالى نوعين من العذاب، وعطف بينهما بحرف الواو الذي يفيد المغايرة، فدل ذلك على أن العذاب الأول غير العذاب الثاني فكان الأول عذاب البرزخ والثاني عذاب النار بعد قيام الساعة.

---

(١) رواه مسلم، (١٧ / ٢٠٢) الجنة، ورواه أحمد في المسند (٣ / ١٠٣) باختصار.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة: ٢١] فقد احتج بهذه الآية ابن عباس – رضى الله عنهما – على عذاب القبر.

إذ أن «من» هنا للتبعيض، أى أن الله تعالى يذيقهم جزءًا من العذاب الأدنى فى الدنيا وبقى لهم باقى العذاب الأدنى فى القبر قبل العذاب الأكبر يوم تقوم الساعة.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الطور: ٤٧].

يقول شارح العقيدة الطحاوية: «وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره فى الدنيا، وأن يراد به عذابهم فى البرزخ، وهو أظهر لأن كثيراً منهم مات ولم يعذب فى الدنيا أو المراد أعم من ذلك» (١).

رابعاً: قوله تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾ [نوح: ٢٥].

فقد فسرها البعض بأنها فى عذاب القبر الذى لحقهم فور إغراقهم.

خامساً: قول الرسول ﷺ فى حديث ابن عباس – رضى الله عنهما – قال: مر النبى ﷺ على قبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة»(٢).

سادساً: حديث أبى هريرة – رضي الله عنه – أن النبى ﷺ قال: «إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير فليتعوذ بالله من أربع من عذاب النار، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال» (٣).

سابعاً: حديث عائشة – رضى الله عنها – أن يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر، فسألت عائشةُ

---

(١) شرح الطحاوية: ص ٣٣٠: ص٣٣١ طبعة مكتبة دار التراث.

(٢) رواه البخارى: كتاب الجنائز: باب (٨١) الجريدة على القبر، رقم (١٣٦١).

(٣) رواه البخارى: كتاب الجنائز: باب (٨٧) التعوذ من عذاب القبر، رقم (١٣٧٧).

رسولَ الله ﷺ عن عذاب القبر فقال: نعم، عذاب القبر. قالت عائشة – رضى الله عنها – : فما رأيت رسول الله ﷺ بعدُ صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر» زاد غندر: عذاب القبر حق» (١).

ثامناً: حديث أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – قال: دخل رسول الله ﷺ مصلاه فرأى ناساً يكشرون، فقال: أما أنكم لو أكثرتم من ذكر هاذم اللذات لشغلكم عما أرى – يعنى الموت – فأكثروا ذكر هاذم اللذات: الموت. فإنه لم يأت علي القبر يوم إلا تكلم فيه. فيقول: أنا بيت الغربة، وأنا بيت الوحدة، وأنا بيت التراب، وأنا بيت الدود. فإذا دفن العبد المؤمن. قال له القبر: مرحباً وأهلاً أما إن كنت لأحب من يمشى على ظهرى إلىَّ، فإذا وليتك اليوم وصرت إلىَّ فسترى صنيعى بك فيتسع له مد بصره ويفتح له باب إلى الجنة. وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر قال له القبر: لا مرحباً ولا أهلاً. أما إن كنت لأبغض من يمشى على ظهرى إلىَّ. فإذا وليتك اليوم وصرت إلىَّ فسترى صنيعى بك. قال: فيلتئم عليه حتى يلتقى وتختلف أضلاعه» قال: قال رسول الله ﷺ بأصابعه فأدخل بعضها في جوف بعض. قال: ويقيض الله له تسعين تنيناً أو تسعة وتسعين لو أن واحداً منها نفخ فى الأرض ما أنبتت شيئاً ما بقيت الدنيا، فتنهشه حتى يفضى به إلى الحساب» قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار» (٢).

تاسعاً: حديث البراء بن عازب – رضى الله عنه – : قال خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر، ولما يُلحد جلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤسنا الطير وفى يده عود ينكت به فى الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثاً» ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال على الآخرة نزل إليه ملائكة من

---

(١) رواه البخارى: كتاب الجنائز: باب (٨٦) ما جاء فى عذاب القبر (١٣٧٢).

(٢) أورده القرطبى فى التذكرة وعزاه للترمذى وقال: قال أبو عيسى: هذا حديث غريب، انظر التذكرة ص ١٠٨

السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوطها، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس المطمئنة أخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِىِّ السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحه مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الريح الطيبة؟ فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا حتى ينتهوا به إلى السماء التى تليها حتى ينتهى إلى السماء السابعة، فيقول الله – عز وجل –: اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه إلى الأرض فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه فيأتيه ملكان فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربى الله، ما دينك؟ فيقول: دينى الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول هو رسول الله ﷺ فيقولون له: وما علمك؟ فيقول قرأت كتاب الله – تعالى – فآمنت به وصدقت، فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فافرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له فى قبره، مد البصر، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذى يسرك هذا يومك الذى كنت توعد، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه الذى يجىء بالخير، فيقول أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة رب أقم الساعة.

قال: وإن العبد الكافر إذا كان فى إقبال من الدنيا وانقطاع من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر، ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة أخرجى إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق فى جسده، فينتزعهما كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح

الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى فى الدنيا، حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا، فيستفتح فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾

[الأعراف: ٤٠]

فيقول الله – عز وجل – اكتبوا كتابه فى سجين، فى الأرض السفلى؛ فيطرح روحه طرحاً ثم قرأ ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاها لا أدرى، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاها لا أدرى، فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم فلا يهتدى لاسمه فيقال: محمد. فيقول: هاها لا أدرى فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى، فافرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الثياب منتن الريح، فيقول: أبشر بالذى يسوؤك هذا يومك الذى كنت توعد، فيقول: من أنت فوجهك الوجه الذى يجىء بالشر فيقول أنا عملك الخبيث ، فيقول: رب لا تقم الساعة.

زاد فى رواية فى قصة المؤمن: «حتى إذا أخرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك فى السماء وفتحت له أبواب السماء، وليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله عز وجل أن يعرج بروحه من قبلهم».

وزاد فى قصة الكافر «ثم يُقيض له أعمى أصم أبكم فى يده مرزبة لو ضرب بها جبل كان تراباً، فيضربه فيصير تراباً، ثم يعيده الله عز وجل كما كان فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شىء إلا الثقلان – قال البراء: ثم يفتح له باب من النار ويمهد له فراش من نار» (١).

---

(١) رواه أبو داود (٣١٩٦)، كتاب الجنائز (مختصراً)، ورواه الحاكم (١/ ٣٧، ٣٨) فى الإيمان، وقال صحيح على شرط الشيخين، ورواه أحمد (٤/ ٢٨٧، ٢٨٨)، وصححه الألبانى.

القبر ووحشته

يعيش الإنسان في هذه الدنيا – إلا من رحم ربى – يلهو ويلعب، يأكل ويشرب يغنى ويطرب، يفرح ويمرح، يأكل اللذيذ من الطعام، ويلبس اللين من اللباس، ويفترش الوثير من الفراش، ثم إذ به يجد نفسه بين لحظة وأخرى وقد وضع فى حجرة ضيقة، مظلمة، موحشة، لا مؤنس يؤنس غربته، ولا جليس يذهب وحشته، وصدق الشافعي حين قال:

تـا الله لـو عـاش الـفـتـى فـى دهـره
ألـفـاً مـن الأعـوام مـالـك أمـره
مـتـنـعـمـاً فـيـهـا بكا نـفـيـسـة
مـتـلـذذاً فـيـهـا بـنـعـمـى عـصـره
لا يعـتـريه الـسـقـم فـيـهـا مـرة
كـلا ولا تـرد الـهـمـوم ببـالـه
مـا كـان هـذا كـلـه فـى أن يـفـى
بمبـيـت أول لـيـلـة فـى قـبـره

وكما جاء فى الحديث «ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه» [١].

وكان أبو ذر يقول لأصحابه: ألا أخبركم بيوم فقرى؟ يوم أوضع فى قبرى.

ويقول أبو الدرداء – رضى الله عنه – أضحكنى ثلاث وأبكانى ثلاث: أضحكنى مؤمل دنيا والموت طلبه، وغافل ليس بمغفول منه، وضاحك بملء فيه لا يدرى أأرضى الله أم أسخطه؟ وأبكانى فراق الأحبة، محمد ﷺ وحزبه، وأحزننى هول المطلع عند غمرات الموت، والوقوف بين يدى الله يوم تبدو السريرة علانية ثم لا يدرى إلى الجنة أم إلى النار.

---

(١) رواه الترمذى وحسنه، ورواه ابن ماجة (٤٢٦٧) ورواه الحاكم وصححه بإسناده.

وكان عثمان بن عفان – رضى الله عنه – إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فقيل له: تذكر الجنة والنار ولا تبكي وتبكى من هذا؟ قال: إن رسول الله ﷺ قال: إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه أحد فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه.

وكان الربيع بن خثيم قد حفر فى داره قبراً فكان إذا وجد فى قلبه قساوة دخل فيه فاضجع فيه ومكث ساعة ثم قال: «رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت» ثم يقول يا ربيع: قد أرجعت فاعمل الآن قبل أن لا ترجع.

ويقول سفيان الثورى: من أكثر ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من النار.

وروى عن رجاء بن حيوة قال: قال لى عمر بن عبد العزيز فى مرضه: كن فيمن يغسلنى ويكفننى ويدخل قبرى فإذا وضعونى فى لحدى فحل العقدة ثم انظر فى وجهى فإنى قد دفنت ثلاثة من الخلفاء كلهم إذا وضعته فى لحده حللت العقدة ثم نظرت إلى وجهه فإذا وجهه مسود فى غير القبلة. قال رجاء: فلما مات أمير المؤمنين فكنت فيمن غسله وكفنه ودخل فى قبره فلما حللت العقدة نظرت إلى وجهه فإذا وجهه كالقراطيس فى القبلة.

ضغطة القبر:

عن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – عن رسول الله ﷺ قال: «هذا الذى تحرك له عرش الرحمن وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة، لقد ضم ضمة ثم فرج عنه»(1).

وزاد البيهقى فى كتاب عذاب القبر: يعنى سعد بن معاذ.

* * *

(1) رواه النسائى: كتاب الجنائز، باب ضمة القبر وضغطته.

صور من عذاب القبر

روى البخارى بسنده عن سمرة بن جندب قال : كان النبى ﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال : من رأى منكم الليلة رؤيا؟ قال : فإن رأى أحد قصها، فيقول ما شاء الله . فسألنا يوماً فقال : هل رأى أحد منكم رؤيا؟ قلنا : لا قال : لكنى رأيت الليلة رجلين أتيانى، فأخذا بيدى فأخرجانى إلى الأرض المقدسة، فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده كلوب من حديد – قال بعض أصحابنا عن موسى : كلوب من حديد يدخله فى شدقه – حتى يبلغ قفاه، ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك، ويلتئم شدقه هذا، فيعود فيصنع مثله . قلت : ما هذا؟ قالا : انطلق . فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه، ورجل قائم على رأسه بفهر أو صخرة، فيشدخ به رأسه، فإذا ضربه تدهده الحجر، فانطلق إليه ليأخذه فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو، فعاد إليه فضربه، قلت : من هذا؟ قالا : انطلق . فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقد تحته ناراً، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كاد أن يخرجوا، فإذا خمدت رجعوا فيها، وفيها رجال ونساء عراة . فقلت : من هذا؟ قالا : انطلق . فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم، على وسط النهر ورجل بين يديه حجارة – قال يزيد ووهب بن جرير عن جرير بن حازم، وعلى شط النهر رجل – فأقبل الرجل الذى فى النهر، فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر فى فيه فرده حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمى فى فيه بحجر فيرجع كما كان . فقلت : ما هذا؟ قالا : انطلق . فانطلقنا حتى انتهينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة، وفى أصلها شيخ وصبيان، وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها، فصعدا بى فى الشجرة وأدخلانى داراً لم أر قط أحسن منها، فيها رجال شيوخ وشباب ونساء وصبيان، ثم أخرجانى منها فصعدا بى إلى الشجر فأدخلانى داراً هى أحسن وأفضل، فيها شيوخ وشباب . قلت : طوفتمانى الليلة فأخبرانى عما

رأيت قالا: نعم. أما الذى رأيته يُشقُ شدقه فكذاب يُحدِّث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيصنع به ما رأيت إلى يوم القيامة. والذى رأيته يُشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن، فنام عنه بالليل ولم يعمل فيه بالنهار، يفعل به إلى يوم القيامة. والذى رأيته فى الثقب فهم الزناة، والذى رأيته فى النهر آكلو الربا. والشيخ فى أصل الشجرة إبراهيم عليه السلام، والصبيان حوله أولاد الناس والذى يوقد النار مالك خازن النار. والدار الأولى التى دخلت دار عامة المؤمنين. وأما هذه الدار فدار الشهداء. وأنا جبريل، وهذا ميكائيل. فارفع رأسك. فرفعت رأسى فإذا فوقى مثل السحاب، قالا: ذاك منزلك. قلت: دعانى أدخل منزلى. قالا: إنه بقى لك عمر لم تستكمله، فلو استكملت أتيت منزلك» (١).

ما يؤخذ من الحديث: يؤخذ من هذا الحديث فوائد جمة منها:

١ - اهتمام الرسول ﷺ بشأن الرؤيا؛ وأنها من الأنبياء وحى.

٢ - شدة عقوبة الكذاب - الذى يتعمد الكذب - لما لذلك من مفاسد عظيمة.

٣ - شدة عقوبة حامل القرآن الذى يهمله تلاوة، ويهجره عملاً، وإنما شُدِّد عليه أكثر من غيره لأن القرآن صار حجة عليه.

٤ - التشديد في عقوبة الزنا، ولما كانوا عراة فى الدنيا من الحياء من الله، فهم كذلك عراة فى العذاب.

٥ - عقوبة آكل الربا، قال الحافظ فى الفتح: قال ابن هبيرة «إنما عوقب آكل الربا بسباحته فى النهر الأحمر وإلقامه الحجارة لأن أصل الزنا يجرى فى الذهب والذهب أحمر، وأما إلقام الملك له الحجر فإنه إشارة إلى أنه لا يغنى عنه شيئاً وكذلك الربا فإن صاحبه يتخيل أن ماله يزداد والله من ورائه محقه» (٢).

٦ - مناسبة العقاب لكل معصية، قال الحافظ فى الفتح: قال الكرمانى:

---

(١) رواه البخارى: كتاب الجنائز، باب (٩٣) حديث رقم (١٣٨٦).
(٢) فتح البارى جـ ١٢ ص ٤٦٥

مناسبة العقوبات المذكورة فيه للجنايات ظاهرة إلا الزناة ففيها خفاء، وبيانه أن العرى فضيحة كالزنا، والزانى من شأنه طلب الخلوة فناسب التنور، ثم هو خائف حذر حال الفعل كأن تحته النار، وقال أيضاً: الحكمة فى الاقتصار على من ذكر من العصاة دون غيرهم أن العقوبة تتعلق بالقول أو الفعل فالأول على وجود ما لا ينبغى منه أن يقال، والثانى إما بدنى وإما مالى فذكر لكل منهم مثال ينبه به على من عداه، كما نبه بمن ذكر من أهل الثواب وأنهم أربع درجات. درجات النبى ﷺ ودرجات الأمة أعلاها الشهداء، وثانيها من بلغ، وثالثها من كان دون البلوغ» (١).

شبهة والرد عليها :

قد يقول قائل: إذا كان كل هذه الصور من العذاب – وغيرها – كائنة بالفعل فلماذا لا نرى شيئاً عندما نفتح القبر، فلا نرى ملائكة تعذب، ولا نرى ناراً؟!

وهذه الشبهة لا يثيرها مؤمن جاد لأنه يؤمن بكل ما أخبر به الله ورسوله ومن ذلك الإيمان بالغيب، أما أولئك الذين فى قلوبهم زيغ فهم يجنحون إلى المادة، ولا يؤمنون إلا بالمحسوس.

ولكن ينبغى أن نعلم أولاً أن العقل السوى لا يستحيل وقوع العذاب والنعيم فى القبر إذ ما الذى يجعل ذلك مستحيلاً؟ ولكن العقل لا يدرك طبيعة هذا العذاب وهذا النعيم إذ أن ذلك ربما يكون فوق قدرته العقلية، وليس معنى أن العقل لا يدرك شيئاً أنه غير موجود، وكم من الأمور التى كشف عنها العلم وأصبحت حقيقة ملموسة وقد كان العقل قديماً لا يتصور وقوعها.

فالحياة البرزخية لها طبيعة خاصة تختلف عن طبيعة الحياة الدنيا، فالحياة فيها تختلف عن الحياة الدنيا، والنار فيها تختلف عن نار الدنيا.

* * *

---

(١) فتح البارى جـ ١٢ ، ص ٤٦٦ ، ٤٦٧

العمل الصالح ينفع صاحبه فى القبر :

إذا وضع الميت فى قبره، قال له القبر - بلسان حاله - يا ابن آدم : أتركت الدنيا أم الدنيا تركتك؟ أجمعت الدنيا أم الدنيا جمعتك؟ أعجلت المنية أم المنية عاجلتك؟ يا ابن آدم : لقد خرجت من التراب بغير ذنب وعدت إلى التراب بكل ذنب . . اعلم يا ابن آدم أن لابد لك من قرين يدفن معك وهو حى وتدفن معه وأنت ميت إن كان كريماً أكرمك وإن كان لئيماً خذلك اجعله صالحاً فإنه عملك .

ويقول ابن قدامة المقدسى - رحمه الله - وقال كعب : إذا وضع الرجل الصالح فى قبره، احتوشته أعماله الصالحة : الصلاة والصيام والحج، والجهاد، والصدقة وقال : وتجىء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة : إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه، فقد أطال بى القيام لله - عز وجل - قال : فيأتونه من قبل رأسه، فيقول الصيام : لا سبيل لكم عليه فقد أطال بى الصيام . قال : فيأتونه من قبل جسده، فيقول الحج والجهاد : إليكم عنه، فقد أنصب بى نفسه، وأتعب بدنه، وحج وجاهد لله عز وجل، لا سبيل لكم عليه . فيأتونه من قبل يديه، فتقول الصدقة : كم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وضعت فى يد الله ابتغاء وجهه، فلا سبيل لكم عليه . قال : فيقال له : هنيئاً طبت حياً، وطبت ميتاً . قال : وتأتيه ملائكة الرحمة فتفرشه فراشاً فى الجمة ودثاراً من الجنة، فيفسح له فى قبره مد بصره، ويؤتى بقنديل من الجنة يستضىء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره »(١) .

* * *

(١) مختصر منهاج القاصدين ص٣٩٩



الفصل الخامس

اليـــوم الآخـــــر

* علامات الساعة
* النفخ فى الصور
* الحشر
* الشفاعة
* العرض على الله
* تطاير الصحف
* الحســـــاب
* الحـــوض
* الميـــــزان
* الصـــراط
* أصحاب النار وأصحاب الجنة
* نعيم الجنــــــة
* عذاب النـــــار

عـــــلامات الساعـــــة

يجب على المسلم أن يؤمن بأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن علمها عند الله وحده، فلا يعرفها نبى مرسل ولا ملك مقرب، وأنه لا سبيل لأحد لأن يعرفها ما بقى من عمر الدنيا.

يقول الله تعالى: ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾

[لقمان: ٣٤]

ويقول تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾

[الأعراف ١٨٧]

ينبغي على الناس أن يشغلوا أنفسهم بالتهيؤ والاستعداد لها بدلاً من أن يشغلوا أنفسهم بالسؤال عن موعدها.

الحكمة من إخفاء موعد الساعة:

يقول تعالى ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ * فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه: ١٥ - ١٦].

فإخفاء موعدها عن الناس يجعلهم على استعداد دائم لها، وعلى حذر دائم، ولو علم الناس موعد الساعة لما نشطوا، ولما عملوا، ولوهت عزائمهم وأما أن يترقبوها فى كل لحظة وحين فهذا أدعى لأن يشمروا عن السواعد ليتأهبوا لها، ذلك لمن آمن بها وأيقن أن العدالة الكاملة، والجزاء الكامل لم يتحقق فى

الدنيا بين البشر، أما أولئك الذين يتبعون أهواءهم فيغفلون عنها فيهلكون فيها.

أولا: علامات الساعة الصغرى:

وهى أمارات أخبر بها رسول الله ﷺ - معظمها يدور حول انحراف الناس عن المنهج الذى جاء به رسول الله ﷺ. ومن هذه الأمارات:

١ - بعثة الرسول ﷺ: فهو خاتم الأنبياء والمرسلين، فلا نبى بينه وبين الساعة، وهذا دليل على اقترابها يقول تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾

[القمر: ١]

ويقول ﷺ «بعثت أنا والساعة كهاتين».

وأشار بالسبابة والوسطى (١).

٢ - كثرة العقوق فى الأولاد، فيعامل الولد أمه كما يعامل السيد أمته من الإهانة بالسب والضرب، وتعامل البنت أمها كما تعامل السيدة أمتها.

٣ - أن يصير أسافل الناس رؤساءهم فتكثر أموالهم حتى يتباهون بطول البنيان وزخرفته وإتقانه.

ففى حديث جبريل أنه سأل رسول الله - ﷺ - عن الساعة فقال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل قال: فأخبرنى عن أمارتها؟ قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان» (٢).

٤ - إضاعة الأمانة بتوسيد الأمور لمن هم ليسوا أهلاً لها، وتنحية أهل الكفاءة، فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: متى

---

(١) رواه البخارى: كتاب الرقاق، باب قول النبى - ﷺ - بعثت أنا والساعة كهاتين، حديث رقم (٦٥٠٣، ٦٥٠٤، ٦٥٠٥).

(٢) رواه البخارى: جـ ١ ص ٩٩، ص ١٠٠ (فتح البارى).

ورواه مسلم: جـ ١ ص ١٥٨ (بشرح النووى).

الساعة؟ فقال: إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة» قال: وكيف إضاعتها؟ قال: إذا أسند الأمر لغير أهله فانتظر الساعة» (١).

٥ – اقتتال فئتين عظيمتين، وهذا ما حدث في العصر الأول بين على ومعاوية فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان وتكون بينهما مقتلة عظيمة ودعواهما واحدة» (٢).

٦ – كثرة القتل والحروب، فعن أبى هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال «لا تقوم الساعة حتى يكثر الهَرْجُ قالوا وما الهَرْجُ يا رسول الله؟ قال القتل القتل.

٧ – ظهور الدجالين الذين يدَّعون النبوة، وقبض العلم، وكثرة الزلازل، وتقارب الزمان، وظهور الفتن، وكثرة القتل، وكثرة المال.

فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة، دعوتهما واحدة، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل؛ ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهَرْجُ وهو القتل، وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذى يعرضه عليه. لا أَرَبَ لى به، وحتى يتطاول الناس فى البنيان، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتنى مكانه» (٣).

والذين ادعوا النبوة أكثر من ثلاثين بكثير، ولكن هؤلاء الثلاثون هم من

---

(١) رواه البخارى: كتاب الرقاق، باب (٣٥) رفع الأمانة، حديث رقم (٦٤٩٦).

(٢) رواه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٨ ص ١٣.

(٣) رواه البخارى؛ كتاب الفتن، باب (٢٥) حديث رقم (٧١٢١).

كبرائهم الذين ينضوى تحتهم كثير من الناس، مثل مسيلمة الكذاب والأسود العنسى وغيرهما.

والمقصود بقبض العلم انتزاعه من الأرض بقبض العلماء العاملين والمقصود بالعلم هو العلم بالله ورسوله وهو العلم الذى يورث الخشية من الله تعالى.

والمقصود بتقارب الزمان نزع البركة من الوقت، أو نقصان عدد ساعات اليوم، أو قطع المسافات الطويلة فى وقت قصير بسبب وجود وسائل المواصلات السريعة.

٨ - مقاتلة المسلمين لليهود: فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودى من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود» (١).

ولا يكون ذلك إلا إذا تحقق فى المسلمين حقيقة الإسلام وحقيقة العبودية.

٩ - شرب الخمر وظهور الزنا: فعن أنس - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - «إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويثبت الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنا» (٢).

وعنه أيضًا قال: لأحدثنكم حديثا لا يحدثكم أحد بعدى، سمعت رسول الله - ﷺ - يقول «من أشراط الساعة، أن يقل العلم، ويظهر الجهل، ويظهر الزنا، وتكثر النساء، ويقل الرجال، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد» (٣).

١٠ - تداعى الأمم على المسلمين: فعن ثوبان - رضى الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - «يوشك الأمم أن تداعى عليكم، كما تداعى الأكلة إلى

---

(١) رواه مسلم: كتاب الفتن، انظر صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٨ ص ٤٤ ورواه البخارى.

(٢) رواه البخارى: كتاب العلم، باب (٢١) رفع العلم وظهور الجهل، رقم (٨٠).

(٣) رواه البخارى: كتاب العلم، باب (٢١) رفع العلم وظهور الجهل رقم (٨١).

قصعتها! فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل! ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن فى قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله: وما الوهن؟ قال: حب الدنيا، وكراهية الموت» (١).

١١ - كثرة الفرق الضالة: فعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل! حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية، ليكونن فى أمتى من يصنع ذلك! وإن بنى إسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين ملة، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة، كلها فى النار إلا واحدة!

قالوا: وما هى؟ قال: من كان على ما أنا عليه وأصحابى» (٢).

١٢ - كثرة خصال السوء وكثرة المعاصى: فعن على - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فعلت أمتى خمس عشرة خصلة حل فيها البلاء! قيل: وما هى يا رسول الله؟

قال: إذا كان المغنم دولا! والأمانة مغنمًا! والزكاة مغرمًا! وأطاع الرجل زوجته! وعق أمه! وبر صديقه، وجفا أباه!! وارتفعت الأصوات فى المساجد، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأكرم الرجل مخافة شره، وشربت الخمور، ولبس الحرير، واتخذت القينات والمعازف، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليرتقبوا عند ذلك ريحًا حمراء، أو خسفًا، أو مسخًا» (٣).

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: إنها ستأتى على الناس سنون خداعة، يُصدَّق فيها الكاذب، ويُكذَّب فيها الصادق،

---

(١) رواه أبو داود: كتاب الملاحم، باب فى تداعى الأمم على الإسلام، رقم (٤٢٩٧).
(٢) أخرجه الترمذى
(٣) رواه الترمذى، وقال حديث غريب (جـ ٤ حديث رقم ٢٢١٠).

ويُؤتمن فيها الخائن، ويُخوَّن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة، قيل: وما الرويبضة: قال: السفيه يتكلم فى أمر العامة» (١).

١٣ - هدنة بين المسلمين والروم (نصارى أوروبا وأمريكا) فعن عوف بن مالك قال: أتيت النبى - ﷺ - فى غزوة تبوك وهو فى قبة من أدم فقال: «أعدد ستًا بين يدى الساعة: موتى، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطًا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته ثم هدنة تكون بينكم وبين بنى الأصفر (النصارى) فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين راية تحت كل راية اثنا عشر ألفًا» (٢).

وعن ذى مِخْبَرٍ - رجل من أصحاب النبى ﷺ - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستصالحون الروم صلحًا آمنًا فتغزون أنتم وهم عدوًا من ورائكم فتنصرون وتغنمون وتسلمون ثم ترجعون حتى تنزلوا بمرج ذى تلول فيرفع رجل من أهل النصرانية الصليب فيقول: غلب الصليب، فيغضب رجل من المسلمين فيدقه، فعند ذلك تغدر الروم وتجمع الملحمة» (٣).

ثانيا: علامات الساعة الكبرى:

١ - طلوع الشمس من المغرب: وهذه بداية التغيير الذى يحدثه الله على نظام الكون فى الحياة، حيث تظهر الأمور الغير مألوفة لدى الناس فعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - أن النبى ﷺ قال: «إن أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبًا» (٤).

---

(١) رواه أحمد فى المسند: جـ١٥، حديث رقم (٧٨٩٩)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده حسن، ومتنه صحيح.
(٢) رواه البخارى.
(٣) رواه أبو داود: كتاب الملاحم، باب ما يذكر من ملاحم الروم حديث رقم (٤٢٩٢).
(٤) رواه مسلم: جـ١٨ ص ٧٧ (بشرح النووى).
ورواه أبو داود: كتاب الملاحم - باب أمارات الساعة (٤٣١٠).

وإذا ظهرت هذه الآية – طلوع الشمس من المغرب – أغلق باب التوبة، فلا تقبل توبة من عاص ولا إيمان من كافر، يقول تعالى: ﴿ **يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا** ﴾

[الأنعام: ١٥٨]

٢ – خروج الدابة: ولا يشغلنا البحث عن صفاتها، وكيفية خروجها، ولا من أين تخرج، ولا كيف تتكلم، ولا ماذا تقول، ولكن الذى يهمنا أن الله تعالى يظهر آية من آياته ليراها الذين كانوا لا يؤمنون بآيات الله ولا يصدقون بيوم القيامة، وليزداد الذين آمنوا إيمانًا، يقول تعالى ﴿ **وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ** ﴾ [النمل: ٨٢].

وبعد خروجها ينقطع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إذ أنه لا فائدة منه حينئذ.

٣ – ظهور الدجال: وهو رجل كذاب، يدعى الألوهية، ويحاول أن يفتن الناس عن دينهم بما يحدثه من خوارق العادات وعجائب الأمور، بإذن الله – ولكنه يحمل فى صورته دلائل كذبه، كنقص صورته، والعور الذى يكون فى عينه، والشاهد بكفره المكتوب بين عينيه، فيثبت الله الذين آمنوا ويضل الظالمين، ثم يأذن الله بنزول عيسى – عليه السلام – فيقتله، وقد وردت أحاديث صحيحه فى شأنه منها:

* عن أنس – رضى الله عنه – قال: قال النبى – ﷺ – «ما بُعث نبى إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور وإن بين عينيه مكتوب: كافر» (١).

وعن أبى بكرة – عن النبى – ﷺ – قال: «لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال، ولها يومئذ سبعة أبواب على كل باب ملكان» (٢) وعن حذيفة – رضى

(١) رواه البخارى: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، حديث رقم (٧١٣١).
(٢) رواه البخارى: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، حديث رقم (٧١٢٥).

الله عنه – عن النبى ﷺ قال فى الدجال: «إن معه ماء ونار، فناره ماء بارد وماؤه نار» [1].

وإنما يجعل الله ذلك على يديه على سبيل الفتنة للعباد.

٤ – نزول عيسى عليه السلام: ويجب على المسلم أن يؤمن بنزول عيسى عليه السلام ليحكم الناس بشريعة الإسلام، ويقتل المسيح الدجال، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية عن أهل الكتاب فلا يقبل منهم إلا الإسلام، فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ – «والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم – ﷺ – حكمًا مقسطًا فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد» [2].

وعن عروة بن مسعود الثقفى قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال فى أمتى فيمكث أربعين لا أدرى أربعين يومًا أو أربعين شهرًا أو أربعين عامًا، فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه. ثم يحكم الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ...» [3].

لماذا خص عيسى – عليه السلام – بذلك من بين الأنبياء؟

يجيب عن ذلك الشيخ محمد الغزالى – رحمه الله – فيقول:

«ولعله خُص بذلك من بين الأنبياء، لأن الخرافة التى تعلقت بشخصه ملأت الأرجاء وقامت باسمها دول قوية، فليكذب الرجل نفسه ما أشاع الخلق عن ألوهيته وهو ليس إلا عبداً لله. ولما كانت الحياة وحدة متماسكة فنزوله فى آخر الزمن كاف فى الدلالة على هذا المعنى، وإن جاء عقب ضلال طويل» [4].

٥ – ظهور يأجوج ومأجوج: وهم قوم مفسدون همجيون، لا يضبطهم

---

(١) رواه البخارى: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، حديث رقم (٧١٢٥).

(٢) رواه مسلم: ، باب بيان نزول عيسى بن مريم حاكما، انظر صحيح مسلم بشرح النووى جـ٢ ص ١٨٩ : ص ١٩٠.

(٣) رواه مسلم: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال (صحيح مسلم بشرح النووى جـ١٨ ص ٧٥ – ٧٦.

(٤) عقيدة المسلم ص ٢٢٥ .

وحى، ولا يحتكمون إلى شريعة، وهم يعيشون فى الصين؛ وكان يجاورهم قوم ضعاف عاجزون يخشون بطشهم وهمجيتهم، فاستعانوا بالملك الصالح الذى آتاه الله ملكًا وعلمًا (ذو القرنين) ليقيم بينهم سدًا يحجز بينهم يقول الله تعالى:

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ [الكهف: ٩٢ : ٩٨].

ومن علامات الساعة ظهور هذه الأمة المفسدة مرة أخرى يقول تعالى:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٦ : ٩٧].

وفى الحديث: عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «إن يأجوج ومأجوج يحفران كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم ارجعوا فستحفرونه غدًا فيعيده الله أشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال ارجعوا فستحفرونه غدًا إن شاء الله تعالى فاستثنوا فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فيَنْشفون الماء ويتحصن الناس منهم فى حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فيرجع عليها الدم، فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء فيبعث الله تعالى عليهم نَغَفًا فى أقفائهم فيقتلهم بها» (١).

---

(١) أخرجه ابن ماجة (٤٠٨٠) الفتن.

وقد وقفت على كثير من الآثار التى تبين أماكن وجودهم، وصفاتهم وما شابه ذلك، ولما لم أطمئن إليها – وخصوصًا أننا لسنا فى احتياج إليها – ضربت صفحًا عن ذكرها، فيكفينا ما قاله القرآن وما ورد فى صحيح السنة:

ومن ذلك:

ما روته السيدة زينب بنت جحش – رضي الله عنها – أن رسول الله ﷺ – دخل عليها يومًا فزعًا يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه (وحلق بأصبعيه: الإبهام والتى تليها)، قالت زينب بنت جحش يا رسول الله: أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث» (١).

ومن ذلك أيضًا: ما جاء فى حديث النواس بن سمعان، حيث قال رسول الله ﷺ «ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء» (٢).

وقد ورد أن خروج يأجوج ومأجوج يتزامن مع وجود عيسى عليه السلام.

ففى حديث النواس بن سمعان: قال: ذكر رسول الله – ﷺ – الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع (هون من شأنه وبين فظاعته) حتى ظنناه فى ناحية النخل فقال: غير الدجال أخوفنى عليكم فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فكل امرئ حجيج نفسه، والله خليفتى على كل مسلم، وإنه شاب جعد قطط، عينه طافية، وإنه يخرج خلة بين الشام

---

(١) رواه البخارى: (جـ١٣ / ٧٠٥٩).
ورواه مسلم: كتاب الفتن، صحيح مسلم بشرح النووى جـ١٨ ص ٢: ص ٣.
(٢) رواه مسلم: جـ١٨ ص ٦٨ (بشرح النووى).

والعراق، فعاث يمينًا وشمالاً – يا عباد الله اثبتوا – قلنا: يا رسول الله: ما لبثه فى الأرض؟ قال: أربعون يومًا. يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة. وسائر أيامه كأيامكم. قلنا يا رسول الله. فذلك اليوم الذى كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم وليلة؟ قال: لا (اقدروا له قدره) قلنا يا رسول الله: فما إسراعه فى الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الريح قال: فيمر بالحى فيدعوهم فيستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، وتروح عليهم سارحتهم (أنعامهم) وهى أطول ما كانت ذرى، وأمده خواصر وأسبغه ضروعًا، ويمر بالحى فيدعوهم فيردون عليه قوله، فتتبعه أموالهم، فيصبحون ممحلين ليس لهم من أموالهم شئ، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجى كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسب النحل – قال: ويامر برجل فيقتل فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل إليه، فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل المسيح عليه السلام فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين واضعًا يديه على أجنحة ملكين، فيتبعه فيدركه فيقتله عند باب لد الشرقى قال: فبينما هم كذلك إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى بن مريم عليه السلام أنى قد أخرجت عبادًا من عبادى لا يدان لك بقتالهم فَحَرِّزْ عبادى إلى الطور فيبعث الله – عز وجل – يأجوج ومأجوج (وهم من كل حدب ينسلون) فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل فيرسل نَغَفَاً (الدود الذى يكون فى أنوف الإبل والغنم) فى رقابهم فيصبحون كموت نفس واحدة، فيهبط عيسى وأصحابه فلا يجدون فى الأرض بيتًا إلا قد ملأه زهمهم ونتنهم فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله – عز وجل – فيرسل الله طيرًا كأعناق البُخْت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله.

قال ابن جابر: فحدثنى عطاء بن يزيد السكسكى عن كعب أر غيره قال: فتطرحهم بالمهيل: قال ابن جابر: فقلت يا أبا يزيد: وأين المهيل؟ قال مطلع الشمس قال: ويرسل الله مطرًا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر أربعين يومًا، فيغسل

الأرض حتى يتركها كالزلقة، ويقال للأرض: أنبتى ثمرك، ودرى بركتك، قال فيومئذ يأكل النفر من الرمانة فيستظلون بِقِحْفِهَا، ويبارك فى الرِّسْل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى الفئام من الناس، واللقحة من البقر تكفى الفخذ، والشاة من الغنم تكفى أهل البيت، قال فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل ريحًا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مسلم - أو قال مؤمن - ويبقى شرار الناس؛ يتهارجون تهارج الحُمُر، وعليهم تقوم الساعة » (١).

* * *

(١) رواه ابن ماجه (٤٠٧٥) الفتن.

النفخ فى الصور

والصور: هو البوق الذى ينفخ فيه إسرافيل – عليه السلام –

النفخة الأولى: وهي نفخة الصعق لفناء الخلق، وتسمى نفخة الفزع. يقول تعالى: ﴿ **مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [يس: ٤٩، ٥٠] فهى تأخذهم فجأة وهم فى خصامهم فى معترك الحياة ودوامتها، فهم آمنون منها، لا يتوقعونها، لا يحسبون لها أى حساب. فإذا هم خامدون، كل على حاله التى كان عليها، لا يملك أن يوصى لمن بعده، ولا أن يرجع إلى أهله وذويه.

فينبغي على النفس أن تحذر هذا الموقف وتترقبه، كما روى أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنعم، وصاحب القرن قد التقم القرن وحتى جبهته، وانتظر أن يؤذن له؟ قالوا: يا رسول الله: كيف نقول؟ قال – ﷺ – قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل» فقال القوم: «حسبنا الله ونعم الوكيل» (١).

ويقول تعالى: ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ** ﴾ [الزمر: ٦٨].

وإثر النفخة الأولى ينحل عقد هذا الكون المنظوم.

يقول تعالى: ﴿ **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ** ﴾ [الحاقة: ١٣ – ١٦].

ويقول تعالى: ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

---

(١) رواه أحمد فى المسند، حديث رقم (١٩٣٦٤).
ورواه الطبرانى وابن حبان، والترمذى وحسنه.

يقول القرطبى – رحمه الله – « وفى حديث أبى هريرة : ثم يأمر الله عز وجل إسرافيل فينفخ نفخة الصعق فيصعق من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله . فإذا اجتمعوا أمواتًا جاء ملك الموت إلى الجبار فيقول : قد مات أهل السماء والأرض إلا من شئت . فيقول الله سبحانه – وهو أعلم – من بقى؟ فيقول : يا رب : بقيت أنت الحى الذى لا يموت وبقى حملة العرش وبقى جبريل وميكائيل وإسرافيل وبقيت أنا فيقول الله – عز وجل – ليمت جبريل وميكائيل، فينطق الله عز وجل العرش . فيقول : أى رب يموت جبريل وميكائيل؟ فيقول : اسكت إنى كتبت الموت على كل من تحت عرشى، فيموتان قال : ثم يأتى ملك الموت إلى الجبار جل جلاله . فيقول : يا رب قد مات جبريل وميكائيل . فيقول الله سبحانه – وهو أعلم – من بقى؟ فيقول : يا رب بقيت أنت الحى الذى لا تموت وبقى حملة عرشك وبقيت أنا فيقول : ليمت حملة العرش . فيموتون فيأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل . ثم يقول ليمت إسرافيل . فيموت . ثم يأتى ملك الموت فيقول : يا رب قد مات حملة عرشك . فيقول – وهو أعلم – من بقى؟ فيقول : بقيت أنت الحى الذى لا يموت، وبقيت أنا . فيقول الله : أنت خلق من خلقى خلقتك لما رأيت فمت فيموت . فإذا لم يبق إلا الله الواحد الأحد الصمد الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ﴿ **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ فكان كما كان أولاً طوى السماء كطى السجل للكتاب . ثم قال : أنا الجبار « لمن الملك اليوم »؟ فلم يجبه أحد فيقول جل ثناؤه وتقدست أسماؤه « لله الواحد القهار » (١) .

وعن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : « يطوى الله – عز وجل – السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول : أنا الملك . أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوى الأرضين بشماله ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ (٢) .

---

(١) تذكرة القرطبى ص ١٩٥ . (٢) رواه مسلم، ورواه أبو داود (ج ٤ / ٤٧٣٢) .

ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل .. وليس فى الإنسان شئ إلا يبلى إلا عظم واحد وهو عجب الذنب منه يركب الخلق يوم القيامة.

وفى حديث عبد الله بن عمرو: قال رسول الله ﷺ: يخرج الدجال فى أمتى، فيلبث فيهم أربعين، لا أدرى: أربعين يومًا، أو أربعين سنة، أو أربعين ليلة، أو أربعين شهرًا؟ فيبعث الله عز وجل عيسى ابن مريم - ﷺ - كأنه عروة بن مسعود الثقفى، فيظهر فيهلكه، ثم يلبث الناس بعده سنين سبعًا، ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحًا باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد فى قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته حتى لو أن أحدهم كان فى كبد جبل لدخلت عليه، قال: سمعتها من رسول الله - ﷺ -، ويبقى شرار الناس، فى خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا، قال: فيتمثل لهم الشيطان، فيقول: ألا تستجيبون؟ فيأمرهم بالأوثان فيعبدونها، وهم فى ذلك دارَّةٌ أرزاقهم، حسن عيشهم، ثم ينفخ فى الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى له، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه، فيصعق، ثم لا يبقى أحد إلا صعق، ثم يرسل الله، أو ينزل الله، قطرًا كأنه الطل أو الظل، - شك الراوى فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى، فإذا هم قيام ينظرون ...» [1].

النفخة الثانية: وهى نفخة البعث، وبعدها تعود الحياة إلى الأموات إعادة كاملة بالجسد والروح، يقول تعالى: ﴿**وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ**﴾

[ق: ٤١: ٤٤]

ويقول تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ**

---

(١) رواه أحمد فى مسنده، جـ ١٠، حديث رقم (٦٥٥٥)، وإسناده صحيح ورواه مسلم.

ومعنى: كَبِد الجبل: وسطه وداخله، فى خفة الطير: اضطرابها ونفورها بأدنى توهم، أحلام السباع: عقولها الناقصة، يلوط حوضه: أى يطينه ويصلحه، الطل: المطر الخفيف.

وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات: ٦ - ١٤] والراجفة هي النفخة الأولى، والرادفة هي النفخة الثانية، ويقول تعالى ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ [الزلزلة: ١ - ٦].

البعث حق والإيمان به واجب:

يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾

[المؤمنون: ١٥ - ١٦]

ويقول تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾

[الحج: ٦، ٧]

ويقول تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾

[الروم: ٢٧]

ويقول تعالى: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن: ٧].

ويقول تعالى مقدمًا دليلاً عقليًا على البعثة: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨ - ٧٩].

البعث ضرورة حيوية:

لا يمكن ان يتصور عقل سليم ان الله تعالى ينهى أمر الخلائق بمجرد موتهم.

ذلك أنه خلقهم لغاية، فمنهم من اتبع ومنهم من أعرض، منهم من عاش لله ومنهم من عاش للشيطان، منهم من فطم نفسه عما نهاه الله عنه، ومنهم من ترك لنفسه الحبل على الغارب، منهم من أصلح فى الدنيا، ومنهم من أفسد؛ فإذا انتهى أمر الإنسان عند الموت فقد استوى الذين عاثوا فى الأرض فسادًا، وظلموا العباد، وخربوا ودمروا، وفسقوا وفجروا، وضلوا وأضلوا، سيستوى هؤلاء جميعًا بالذين أصلحوا واهتدوا، وأمر بالمعروف ونهوا عن المنكر، فيكون بذلك المؤمن هو الخاسر!

يقول تعالى: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ** ﴾ [المؤمنون: ١١٥ - ١١٦].

ويقول تعالى: ﴿ **يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [المجادلة: ٦].

وعلى هذا فلا بد من البعث ليعطى كل ذى حق حقه، ليرفع الله الذين ترفعوا عن الدنايا فى الدنيا، ويخفض الذين تمرغوا فى تراب المعصية.

يقول الشيخ محمد الغزالى - رحمه الله -:

« سننتهى من هذه الدنيا، وستنتهى هذه الدنيا بعدنا .. ثم ماذا؟ نحب أن نقول أولاً - أو نؤكد ما قلناه قبلاً -: إن الله سبحانه وتعالى ماجد عظيم، وأن كماله الأسنى لا ترقى إلى كنهه العقول، وأنه أوجد البشر نفضلاً وأعطاهم - على ظهر هذا الكوكب الضيق - فرصة خطيرة لو أحسنوا استغلالها، وأنه سبحانه وتعالى لن يمنح الخلود فى جواره الكريم إلا لمن انتهزوا هذه الفرصة .. فترشحهم أعمالهم وأحوالهم للصعود إلى الرفيق الأعلى .

إن الله المجيد لا يقبل إلى جواره الأوغاد.

إن الله العليم لا يقبل إلى جواره الجهلة.

إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا.

إن الله نظيف يحب النظافة.

إن السفلة الذين التصقوا بالتراب وعاشوا له، لن يرتفعوا عنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: ٤٠] (١).

كُل يُبْعثُ على ما مات عليه:

عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال: سمعت النبى ﷺ يقول: « يبعث كل عبد على ما مات عليه » (٢).

صور من أحوال المبعوثين:

١ - بعث الذى يُجرحُ فى سبيل الله: عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال: « والذى نفسى بيده لا يُكْلَمُ أحد فى سبيل الله - والله أعلم بمن يكلم فى سبيله - إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثعب دمًا، اللون لون الدم والعرف عرف المسك » (٣).

٢ - بعث الذى قتل فى سبيل الله والذى قتل مرائيًا:

عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - أنه قال: يا رسول الله أخبرنى عن الجهاد والغزو فقال: « يا عبد الله بن عمرو إن قاتلتَ صابرًا محتسبًا بعثك الله صابرًا محتسبًا، وإن قاتلتَ مرائيًا مكاثرًا بعثك الله مرائيًا مكاثرًا، على أى حال قاتلتَ أو قُتلتَ بعثك الله على تِلك الحال » (٤).

٣ - بعث الذى مات مُحْرِمًا: عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رجلاً كان مع رسول الله - ﷺ - محرمًا فوقصته ناقته فمات فقال رسول الله - ﷺ - « اغسلوه بماء وسدر وكفنوه فى ثوبه ولا تمسوه بطيب ولا تخمروا رأسه فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً » (٥).

---

(١) عقيدة المسلم ص ٢٢٦. (٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخارى ومسلم.

(٤) رواه أبو داود: كتاب الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا (٢٥١٩).

(٥) رواه البخارى.

٤ - بعث النائحة :

عن أبى مالك الأشعرى - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال :

« . . . النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب » (١) .

٥ - بعث آكل الربا :

يقول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ [البقرة: ٢٧٥] .

قال ابن كثير - رحمه الله - : « أى لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له، وذلك أنه يقوم قياما منكرا، وقال ابن عباس : آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونا يخنق » (٢) .

* * *

(١) رواه مسلم (٦/ ٢٣٥) الجنائز.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٢٦ .

الحشـــــــر

وهو سوق الناس – بعد البعث من القبور – إلى مكان الحساب الذى يجمع الله فيه الخلائق من الأولين.

يقول الله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٠٣]

ويقول تعالى: ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٧].

صفة أرض المحشر:

يقول الله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥، ١٠٧].

فالجبال الراسية الراسخة تنسف فتصير قاعًا بعد أن كانت ارتفاعًا، ثم تستوى فلا يكون فيها ارتفاع ولا انخفاض، ولا نتوء ولا اعوجاج.

وقال ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقى ليس فيها معلم لأحد»(١).

صفة الحشر: عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال: «يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين وراهبين، واثنان على بعير وثلاثة على بعير وأربعة على بعير وعشرة على بعير، وتحشر بقيتهم النارُ تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسى معهم حيث أمسوا»(٢).

---

(١) رواه البخارى: كتاب الرقاق، باب (٤٣) نفخ الصور (٦٥٢١) ورواه مسلم: صفة القيامة (١٧/ ١٣٤).

ومعنى عفراء: بيضاء تضرب إلى الحمرة قليلاً، ومعنى قرص النقى: أى الدقيق الخالى من الغش والنخال، ومعنى: ليس فيها معلم لأحد: ليس بها أى علامة فهى مستوية.

(٢) رواه البخارى: كتاب الرقاق، باب الحشر، رقم (٦٥٢٢).

ورواه مسلم: صفة القيامة (١٧/ ١٩٤، ١٩٥).

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال: « يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: صنف مشاه، وصنف ركبان، وصنف على وجوههم» قيل يا رسول الله: كيف يمشون على وجوههم؟ قال: إن الذى أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك » (1).

صفة حشر الكافر:

يقول الله تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴾ [الإسراء: ٩٧] وهى صفة تناسب صفتهم التى كانوا عليها فى الدنيا من تعطيل الجوارح عن إدراك الهدى، فكذلك عطلها الله لهم فحرمهم منها يوم الزحام.

صفة حشر المتقين:

يقول الله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ [مريم: ٨٥] فهم وافدون إلى الرحمن فى موكب كريم.

يقول على بن أبى طالب – رضى الله عنه – « ما يحشرون والله على أرجلهم ولكن على نوق رحالها الذهب، ونجائب سرجها يواقيت، إن هموا بها سارت، وإن هموا بها طارت ».

صفة حشر المجرمين:

يقول تعالى: ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم: ٨٦] فهم يساقون كالقطعان فى ذلة ومهانة، يساقون عطاشاً.

ويقول الله تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [طه: ١٠٢].

فهم يحشرون زرق الوجوه من الغم والكدر الذى يعلوهم.

---

(1) رواه أحمد وأبو داود والترمذى وحسنه.

صفة حشر المتكبرين : -

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، أن النبى ﷺ قال : يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الناس، يعلوهم كل شئ من الصغار، حتى يدخلوا سجنًا فى جهنم، يقال له : بُولَسُ، فتعلوهم نار الأنيار، يسقون من طينة الخبال، عصارة أهل النار » [1] .

صفة الناس فى الحشر :

عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله - ﷺ - : « تحشرون حفاة عراة غرلاً قالت عائشة - رضى الله عنها - فقلت يا رسول الله : الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال : الأمر أشد من أن يهمهم ذاك » [2] .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قام فينا النبى - ﷺ يخطب فقال : إنكم محشورون حفاة عراة غرلاً « كما بدأنا أول خلق نعيده » الآية . وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم الخليل، وإنه سيجاء برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول : يا رب أصيحابى، فيقول : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح « وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم - إلى قوله - الحكيم » قال : فيقال : إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم » [3] .

شدة الكرب فى الحشر :

يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج : ١ ، ٢] .

وعن المقداد بن الأسود عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تدنى الشمس يوم

---

(١) رواه أحمد، جـ ١٠ ، حديث رقم (٦٦٧٧) وإسناده صحيح .

(٢) رواه البخارى : كتاب الرقاق، باب الحشر، حديث رقم (٦٥٢٧) .

(٣) رواه البخارى : كتاب الرقاق، باب الحشر، حديث رقم (٦٥٢٦) .

القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا، وأشار بيده إلى فيه » (١).

* * *

ما ينفع الناس فى الحشر

بينما الناس فى كرب وشدة، وفزع وهلع، حتى أن بعض الناس يتمنى أن يُصرفوا ولو إلى النار؛ فى هذا الجو العصيب، يُظلُّ اللهُ سبعةَ أصناف من الناس فى ظل عرشه. ويخفف عن آخرين ومن ذلك:

١ - فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ فى عبادة الله، ورجل قلبه معلق فى المساجد، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه، وتفرقا عليه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إنى أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة، فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه » (٢).

٢ - وعن كعب بن عمرو رضى الله عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « من أنظر معسرًا أو وضع عنه أظله الله فى ظله » (٣).

٣ - وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ « من لقم أخاه لقمة صرف الله عنه مرارة الموقف يوم القيامة » (٤).

---

(١) رواه مسلم: جـ١٧ ص ١٩٦ (شرح النووى) والميل هو المسافة المعروفة، أو هو الميل الذى يكتحل به العين.

(٢) رواه البخارى: جـ١ ص ١٧٠ (بحاشية السندى).
ورواه مسلم: جـ٧ ص ١٢٠، ص ١٢١، ١٢٢ (شرح النووى).

(٣) رواه مسلم (٤ / ٢٣٠٢).

(٤) رواه الطبرانى.

٤ – وخرج أبو بكر أحمد بن على الخطيب : عن عبد الله بن مسعود : « يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط وأظمأ ما كانوا قط وأعرى ما كانوا قط وانصب ما كانوا فمن أطعم لله أطعمه الله ومن سقا لله سقاه الله ومن كسا لله كساه، ومن عمل لله كفاه ومن نصر الله أراحه الله فى ذلك اليوم » .

٥ – عن أبى هريرة – رضى الله عنه قال : قال رسول الله – ﷺ –: « من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » (١) .

* * *

---

(١) رواه مسلم (١٧ / ٢١، ٢٢) الذكر والدعاء .

الشفـــاعـــــة

إذا اشتد الكرب بالناس فى الموقف العظيم استشفع الناس إلى الله عز وجل بالرسل والأنبياء أن ينقذهم مما هم فيه، ويعجل لهم فصل القضاء.

والشفاعة لغة: الوسيلة والطلب، **وعرفًا**: سؤال الخير للغير.

وهى تكون من الأنبياء والعلماء العاملين والشهداء الصالحين.

فعن عثمان بن عفان - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء» (١).

أنواع الشفاعة:

أولاً: الشفاعة العظمى: وهى مختصة بالنبى محمد ﷺ فهى المقام المحمود الذى وعده الله. يقول الله تعالى: ﴿**أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**﴾ [الإسراء: ٧٨، ٧٩] وكلمة «عسى» هنا تفيد القطع والوجوب؛ لأنها من كلام الله تعالى لأنه سبحانه وتعالى قادر مقتدر.

وقد فسر الرسول - ﷺ - المقام المحمود بأنه الشفاعة العظمى، فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ فى قوله «**عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا**» وسئل عنها فقال: «هى الشفاعة» (٢).

وعن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ قال: «أعطيت خمسًا لم يعطهم أحد قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى المغانم، ولم تحل لأحد قبلى،

---

(١) أخرجه ابن ماجه: فى الزهد، باب ذكر الشفاعة (٢/١٤٤٣ رقم ٤٣١٣).
(٢) أخرجه الترمذى فى تفسير الآية (٨/٥٧٢) وقال: حديث حسن.

وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة » [١].

والمعنى أن الله تعالى أعطى الشفاعة العظمى - المقصودة من الحديث - منة من الله عز وجل على محمد ﷺ، فهى ليست من ذات محمد ﷺ.

وتكون الشفاعة العظمى لإراحة جميع الخلق مسلمهم وكافرهم من طول الموقف وأهواله.

فعن أنس - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: « يجمع الله الناس يوم القيامة، فيهتمون لذلك - وفى رواية فيلهمون ذلك - فيقولون: لو استشفعنا على ربنا؟ حتى يريحنا من مكاننا هذا؟ قال فيأتون آدم - ﷺ - فيقولون: أنت آدم، أبو الخلق، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناكم فيذكر خطيئته التى أصاب فيستحيى ربه منها، ولكن ائتوا نوحًا، أول رسول بعثه الله. قال: فيأتون نوحًا - ﷺ - فيقول لست هناكم، فيذكر خطيئته التى أصاب، فيستحيى ربه منها. ولكن ائتوا إبراهيم - ﷺ - الذى اتخذه الله خليلاً، فيأتون براهيم - ﷺ - فيقول لست هناكم، ويذكر خطيئته التى أصاب فيستحيى ربه منها، ولكن ائتوا موسى - ﷺ - الذى كلمه الله، وأعطاه التوراة. قال: فيأتون موسى - عليه السلام فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته التى أصاب فيستحيى ربه منها، ولكن ائتوا عيسى - روح الله وكلمته - فيأتون عيسى روح الله وكلمته، فيقول: لست هناكم، ائتوا محمداً - ﷺ - عبداً قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال: قال رسول الله ﷺ - فيأتونى، فأستأذن على ربى، فيؤذن لى فإذا أنا رأيته وقعت ساجداً، فيدعنى ما شاء الله، فيقال: يا محمد ارفع رأسك. قل تسمع. سل تعطه. اشفع تشفع. فأرفع

---

(١) أخرجه البخارى: كتاب التيمم، الباب الأول (١ / ٤٣٥) حديث رقم (٣٣٥).

راسى، فأحمد ربى بتحميد يعلمنيه ربى ثم أشفع فيحد لى حداً، فأخرجهم من النار، وأدخلهم الجنة. قال: فلا أدرى فى الثالثة أو فى الرابعة قال: فأقول: يا رب ما بقى فى النار إلا من حبسه القرآن » (١).

وكما هو واضح لكل ذى عقل أن الشفاعة ليست لله، وليست خروجًا عن أمر الله، بل يسجد ﷺ لله، ثم يسبحه بتسبيحات يلهمه الله إياها.

ثانيا: الشفاعة فى إدخال فريق الجنة بغير حساب، وهى مختصة به ﷺ أيضًا.

وقد ثبتت هذه الشفاعة بإحدى روايات الحديث السابق ولكن من رواية أبى هريرة - رضى الله عنه - « فأقول: يا رب أمتى أمتى فيقال: يا محمد: أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ».

ثالثا: الشفاعة فى قوم حوسبوا، فاستحقوا العذاب ألا يعذبوا وهذه الشفاعة ليست خاصة به ﷺ بل يشاركه فيها كل الأنبياء إذا أن شعارهم جميعًا على الصراط « يا رب سلم سلم ».

رابعا: الشفاعة فيمن دخل النار أن يخرج منها: ودليله ما جاء فى حديث أنس السابق.

وهى ليست رأيًا لرسول الله ﷺ يخرج من يشاء من النار، وإنما يحد الله له حدًا، فيخرجهم من النار.

وهذا النوع من الشفاعة ليس خاصًا بالرسول محمد ﷺ بل يدخل فيه الأنبياء جميعًا، بل والمؤمنون يشفعون لإخوانهم الذين دخلوا النار.

وهذا النوع من الشفاعة، تنكره الخوارج والمعتزلة أشد الإنكار إذ أنهم يحملون الآيات التى وردت فى الكفار على أنها فى عصاة المسلمين، وقد سار فى

---

(١) رواه البخارى: كتاب الرقاق رقم (٦٥٦٥)، رواه مسلم.

ركابهم بعض الذين ليس لهم قدم راسخ فى العلم، من غير المتخصصين فى العلوم الشرعية.

ومن شبهات المنكرين والذين زجوا بأنفسهم فى غير مجالهم:

١ - قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٧].

قلت: المقصود بهؤلاء هم الكفار ويوضح ذلك الآية التى قبلها: إذ يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٦، ٣٧].

والاستدلال بالآية على نفى الشفاعة جهل فاضح.

٢ - قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٧ - ١٠٨].

قلت: هذه الآية أيضًا فى الكافرين الذين كذبوا بآيات الله والآيات التى قبل الآيتين المذكورتين تبين ذلك جيدًا، يقول الله تعالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ * أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴾.

٣ - قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٧].

قلت: إنها أيضا فى المشركين الذين عبدوا غير الله وتبين الآيات السابقة لهذه الآية ذلك جيداً: يقول تعالى:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾

[البقرة: ١٦٥ – ١٦٧]

٤ – قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴾

[الزمر: ١٩]

ومعنى الآية: أن الذين حق عليهم العذاب واستحقوه لا تنفعهم الهداية ولا الشفاعة، والمقصود بهؤلاء أيضًا الكفار يقول تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤].

ثم إن هؤلاء العصاة – من الموحدين – أليس لهم حسنات وعدهم الله عز وجل بأن يوفيهم أجرها، يقول تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] ألم يقل الله تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

ألم يقل الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨].

٥ – قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾.

فهم يقولون فجميعة الأمر إليه وحده.

نقول: نعم لله الشفاعة جميعًا، فيمن بها على من يشاء ويقبلها ممن يشاء يقول تعالى ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾.

ولو كان المقصود أن الله وحده هو الذى يشفع! فعند من يشفع؟

٦ – قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾.

فهم يقولون لا تملك أى نفس لأى نفس شيئًا.

قلت: نعم لا تملك نفس لنفس شيئًا، ولكن الشافع إنما يرجو الله ويدعوه، فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبى دعوة مستجابة، فتعجل كل نبى دعوته، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة، فهى نائلة إن شاء الله من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئًا» (١).

٧ – قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

قلت: الشفاعة ليست مشاركة فى الأمر ولا فى الحكم ولكنها مجرد توسل ودعاء إذا شاء الله قبله، وإذا شاء رده.

٨ – وقد يستدلون بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣].

وهذه الآية – وغيرها – وردتا فى الذين كفروا بمحمد ﷺ من بنى إسرائيل. فيقول الله تعالى قبل الآية المذكورة: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٨، ١٢٢].

٩ – وقد يستدلون أيضًا بقوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١].

وبقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

والآيتان تنفيان الشفاعة عن الذين كفروا؛ فآية الشعراء جاء قبلها قوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ

---

(١) رواه مسلم: ١/ ١٨٩، ورواه البخارى ١٣/ ٤٤٧ رقم ٧٤٧٤.

هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ * فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء ٩١ – ١٠١].

وكذلك آية المدثر: جاء فيها قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٣٨ – ٤٨] فهذه الآيات هي دليل كاف لإثبات الشفاعة لا لنفيها فهى تثبت وجود الشفاعة، إلا ان الكفار محرومون منها.

ومن أدلة ثبوت الشفاعة:

* قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ...﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فهذه الآية تثبت الشفاعة لمن أذن الله له بها.

* قول الرسول – ﷺ – فى حديث أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – يقول الله عز وجل: «شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط، قد عادوا حممًا، فيلقيهم فى نهر فى أفواه الجنة، يقال له: نهر الحياة» (١).

* قول الرسول ﷺ: «يخرج الله قومًا منتنين، قد محشتهم النار، بشفاعة الشافعين، فيدخلهم الجنة، فيسمون الجهنميون» (٢).

---

(١) رواه مسلم: كتاب الإيمان، ورواه البخارى (رقم ٧٤٣٩).
ومعنى: حممًا: فحمًا، وهم أناس قالوا لا إله إلا الله، ولكن لم يعملوا خيرًا فيعذبهم الله فى جهنم لكن لا يخلدون فيها، بل يخرجهم الله بعقيدة التوحيد.
(٢) رواه أحمد بإسناد صحيح ٥/ ٤٠٢

من صور الشفاعة:

١ - صلاة الجنازة: وهى نوع من أنواع الشفاعة، ففى الحديث: عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: سمعت النبى - ﷺ - يقول: «ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئًا، إلا شفعهم الله فيه» (١).

فهل ينكر أعداء الشفاعة صلاة الجنازة ؟!

وإذا لم تكن صورة من صور الشفاعة ! فماذا تكون إذن؟!

٢ - شفاعة الصيام والقرآن للعبد:

ففى حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله - ﷺ - قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أى رب، منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعنى فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعنى فيه، قال: فيشفعان» (٢).

٣ - شفاعة النبى - ﷺ - لمن مات بالمدينة:

فعن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن النبى - ﷺ - قال: من استطاع أن يموت بالمدينة فليفعل، فإنى أشفع لمن مات بها» (٣).

٤ - شفاعة سورة الملك: فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ: أنه قال: إن سورة من القرآن، ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له، وهى: «تبارك الذى بيده الملك» (٤).

---

(١) رواه مسلم: كتاب الجنائز، باب من صلى عليه أربعون شفعوا فيه ورواه أبو داود: كتاب الجنائز، باب فضل الصلاة على الجنائز وتشييعها.

(٢) رواه أحمد بإسناد صحيح (٢/١٧٤).

(٣) رواه أحمد فى مسنده، وإسناده صحيح، جـ ٧ حديث رقم (٥٤٣٧)، ورواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه (٤/٣٧٢ - ٣٧٣).

(٤) رواه أحمد فى مسنده، وإسناده صحيح، جـ ١٥ حديث رقم (٧٩٦٢).

حديث عظيم فى الشفاعة

عن عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما – قال: قال رسول الله – ﷺ: إنه لم يكن نبى إلا له دعوة تنجزها فى الدنيا، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى، وأنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وبيدى لواء الحمد ولا فخر، آدم فمن دونه تحت لوائى، قال: ويطول يوم القيامة على الناس، حتى يقول بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى آدم أبى البشر، فيشفع لنا إلى ربه عز وجل فليقض بيننا، فيأتون آدم عليه السلام، فيقولون: يا آدم، أنت الذى خلقك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته، فاشفع لنا إلى ربك فليقض بيننا، فيقول: إنى لست هناكم، إنى قد أخرجت من الجنة بخطيئتى، وإنه لا يهمنى اليوم إلا نفسى، ولكن ائتوا نوحًا رأس النبيين، فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح، اشفع لنا إلى ربك فليقض بيننا، فيقول: إنى لست هناكم، إنى قد دعوت دعوة غرقت أهل الأرض، وإنه لا يهمنى اليوم إلا نفسى، ولكن ائتوا إبراهيم خليل الله عليه السلام، قال: فيأتون إبراهيم، فيقولون: يا إبراهيم، اشفع لنا إلى ربك فليقض بيننا، فيقول إنى لست هناكم، إنى قد كذبت فى الإسلام ثلاث كذبات، وإنه لا يهمنى اليوم إلا نفسى، فقال رسول الله ﷺ: إن حاول بهن إلا عن دين الله، قوله (إنى سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) وقوله لامرأته: (إنها أختى)، ولكن ائتوا موسى عليه السلام الذى اصطفاه الله برسالته وكلامه، فيأتون موسى، فيقولون: يا موسى أنت الذى اصطفاك الله برسالته وكلمك، فاشفع لنا إلى ربك فليقض بيننا، فيقول: إنى لست هناكم، إنى قتلت نفسًا بغير نفس، وإنه لا يهمنى اليوم إلا نفسى، ولكن ائتوا عيسى روح الله وكلمته، فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى، أنت روح الله وكلمته، فاشفع لنا إلى ربك فليقض بيننا، فيقول: إنى لست هناكم، قد اتُّخذت إلهًا من دون الله، وإنه لا يهمنى اليوم إلا نفسى، ثم قال: أرأيتم لو كان متاع فى وعاء قد ختم عليه، أكان يقدر على ما فى الوعاء حتى يفض الخاتم؟ فيقولون: لا، فيقول إن

محمداً - ﷺ - خاتم النبيين قد حضر اليوم، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال رسول الله - ﷺ - فيأتونى، فيقولون: يا محمد، اشفع لنا إلى ربك فليقض بيننا، فأقول: نعم، أنا لها، حتى يأذن الله لمن يشاء ويرضى، فإذا أراد الله عز وجل أن يصدع بين خلقه نادى مناد: أين أحمد وأمته؟ فنحن الآخرون الأولون، فنحن آخر الأمم وأول من يحاسب، فتفرج لنا الأمم عن طريقنا، فنمضى غراً محجلين من آثر الطهور، وتقول الأمم: كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلها، قال: ثم آتى باب الجنة، فآخذ بحلقة باب الجنة، فأقرع الباب، فيقال: من أنت؟ فأقول: محمد، فيفتح لى، فأرى ربى عز وجل وهو على كرسيه، أو سريره، فأخرله ساجداً، وأحمده بمحامد لم يحمده بها أحد كان قبلى، ولا يحمده بها أحد بعدى، فيقال: ارفع رأسك، وقل تسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، قال: فارفع رأسى، فأقول: أى رب، أمتى، أمتى، فيقال ليك أخرج من النار من كان فى قلبه مثقال كذا وكذا، فاخرجهم، ثم أعود فأخر ساجداً، وأحمده بمحامد لم يحمده بها أحد كان قبلى، ولا يحمده بها أحد بعدى، فيقال لى: ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسى، فأقول: أى رب، أمتى، أمتى، فيقال: أخرج من النار من كان فى قلبه مثقال كذا وكذا، فأخرجهم، قال: وقال فى الثالثة مثل هذا أيضاً» (١).

* * *

أوهـام المفرطـــين:

إذا كنا قد فندنا بعض شبه المنكرين للشفاعة، فإننا نود أن ننوه إلى الذين يتعلقون بأحاديث الشفاعة، فيتخيلون أن قوانين الجزاء قد بطلت، وأن نار الجحيم تحولها الشفاعة برداً وسلاماً؛ فترى كثيراً من الجهال يفرطون فى الفروض، ويفعلون الموبقات، أليسوا من أمة صاحب الشفاعة؟!

---

(١) رواه أحمد فى مسنده، وإسناده صحيح، جـ ٤، حديث رقم (٢٦٩٢).

أم أن الجزاء حق، وأنه يتناول الذرة من الخير والشر، وقد صرح القرآن بذلك «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره».

وقد ندد القرآن باليهود، لما ظنوا أن الجنة حكر عليهم، فأقبلوا على ملذات العيش الأدنى ينتهبونها ويقولون سيغفر لنا!!

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

ويقول الله تعالى – للذين يبنون على الشفاعة كل شئ: **﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾** [النساء: ١٢٣].

* * *

العـرض علـى الله

بعد أن يشفع الرسول - ﷺ - الشفاعة العظمى - لتعجيل القضاء بين الناس، فيقول ﷺ: يا رب وعدتنى الشفاعة فشفعنى فى خلقك فاقض بينهم .. فيقول: شفعتك .. أنا آتيكم فاقضى بينكم. فيرجع الرسول - ﷺ - فيقف مع الناس ... فبينما هم وقوف إذ يسمعون حساً من السماء شديداً .. فينزل من أهل السماء الدنيا مثل من فى الأرض من الجن والإنس .. حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم .. وأخذوا مصافهم، وقال لهم الناس: أفيكم ربنا؟ قالوا: لا .. وهو آت .. ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف. حتى ينزل الجبار تبارك وتعالى فى ظلل من الغمام والملائكة .. ويحمل عرشه يومئذ ثمانية .. لهم زجل من تسبيحهم .. يقولون: سبحان ذى العزة والجبروت .. سبحان ذى الملك والملكوت .. سبحان الحى الذى لا يموت .. سبحان الذى يميت الخلائق ولا يموت.

فيضع الله كرسيه حيث شاء من أرضه .. ثم يهتف بصوته فيقول: يا معشر الجن والإنس إنى قد أنصت لكم من يوم خلقتكم إلى يومكم هذا .. أسمع قولكم وأرى أعمالكم .. فأنصتوا إلى فإنما هى أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم .. فمن وجد خيراً فليحمد الله .. ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

ثم يأمر الله جهنم فيخرج منها عنق ساطع مظلم .. ثم يقول:

﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ * هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [يس: ٥٩ - ٦٤].

ثم ينادى سبحانه وتعالى: أين الجبابرة وأبناء الجبابرة؟ أين الملوك وأبناء الملوك؟ قصمت الجبابرة بسلطانى وأفنيت الملوك بعظمتى. ثم ينادى جل جلاله: يا عبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون. فإذا سمع الخلق هذا النداء وقالوا كلهم نحن عباد الله ثم ينادى الثانية ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٩] فعند ذلك ينكس رأسه كل من لم يكن مسلمًا فتبقى أهل الأديان متحيرين ويفرح المسلمون ثم ينادى الثالثة: ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ فينكس أهل الكبائر رؤوسهم ويرفع أهل التوحيد والتوبة رؤوسهم، ثم يؤتى باللوح المحفوظ فيقول الله له: أيها اللوح المحفوظ: ما صنعت بالذى أنزلته فيك! فيقول اللوح المحفوظ: بلغته عبدك ميكائيل ثم يؤتى بميكائيل فيقول الله له: ما صنعت بالوحى الذى بلغ إليك اللوح المحفوظ؟ وهل تشهد له بالتبليغ؟ وأنا أعلم بذلك منك. فيقول ميكائيل: يا رب بلغنى اللوح المحفوظ وبلغته عبدك إسرافيل، ثم يؤتى بإسرافيل: فيقول الله له ما صنعت بالوحى الذى بلغك ميكائيل؟ وهل تشهد له بالتبليغ؟ فيقول إسرافيل عليه السلام: قد بلغته جبريل. ثم ينادى الله: أين جبريل؟ فيؤتى بجبريل فيقول الله تبارك وتعالى يا جبريل: ما صنعت بالوحى الذى بلغك إسرافيل؟ وهل تشهد له بالتبليغ؟ فيقول جبريل عليه السلام: نعم يا سيدى بلغته نبيك نوحًا عليه السلام. فيؤتى بنوح عليه السلام. فيقول الله له يا نوح: ما صنعت بالوحى الذى بلغك جبريل؟ وهل تشهد له بالتبليغ؟ فيقول عليه السلام: نعم يا سيدى وقد بلغته قومى، ثم يدعى بقوم نوح عليه السلام فيقول لهم: ما صنعتم بالوحى الذى بلغكم نوح؟ وهل بلغكم؟ وهل تشهدون له بالتبليغ؟ فيقول قوم نوح: ربنا ما جاءنا من نذير ولا رأيناه. فيقول الله تعالى: يا نوح: هل تجد من يشهد لك أنك بلغت قومك الرسالة؟ فيقول نوح: يشهد لى محمد وأمته. فينادى مناد أين النبى الأمى العربى؟ أين أحمد؟ أين سيد العالمين؟ أين خاتم النبيين والمرسلين؟ فعند ذلك يقوم محمد ﷺ، فيقول له ربه: يا أحمد ما تقول هل بلغ نوح الرسالة إلى قومه: فيقول: نعم يا سيدى ومولاى

قد بلغ وأقام يدعوهم إلى الإيمان ألف سنة إلا خمسين عامًا . فيقول الجبار جل جلاله : صدقت يا أحمد فعند ذلك يفرح نوح عليه السلام ويتهلل وجهه .

فيميز الله الناس . وينادى الأمم داعيًا كل أمة إلى كتابها . والأمم جاثية من الهول . قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ * وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٧ – ٢٩] ثم يقضى الله بين العباد ، فإذا فرغ من ذلك . . نادى مناد يسمع الخلائق كلهم فقال . . ليلحق كل قوم بآلهتهم وما كانوا يعبدون من دون الله . . فلا يبقى أحد عبد من دون الله شيئًا إلا مثلت له الهيئة بين يديه . . فيجعل الله يومئذ ملكًا من الملائكة على صورة عزير . . ويجعل ملكًا من الملائكة على صورة عيسى . . فيتبع هذا اليهود ويتبع هذا النصارى . . ثم نادتهم آلهتهم إلى النار فهذا الذى يقول الله تعالى : ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ * إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء : ٩٧ – ٩٩] فإذا لم يبق إلا المؤمنون وفيهم المنافقون . . جاءهم الله فيما شاء من هيئة فقال : يا أيها الناس . . ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون . . فيقولون : والله ما لنا إلا الله ، وما كنا نعبد غيره . . فينصرف عنهم – وهو الله – فيمكث ما شاء أن يمكث . . ثم يأتيهم فيقول : يا أيها الناس . . ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون فيقولون : والله ما لنا إلا الله ، وما كنا نعبد غيره . . فيكشف عن ساقه ويتجلى لهم من عظمته ما يعرفون به أنه ربهم . . فيخروا سجداً على وجوههم . . ويخر كل منافق على قفاه . . ويجعل الله أصلابهم كصياصى البقر – أى قرونها – ثم يأذن الله لهم فيرفعون رؤوسهم – وذلك قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا

يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ [القلم: ٤٢ – ٤٣].

يـوم التـلاق:

يقول الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٤٧ – ٤٨].

ويقول تعالى: ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ * يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٥ – ١٧].

ويقول تعالى: ﴿ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ * يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٦ – ١٨]

يقول تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا ﴾ [طه: ١٠٥ – ١٠٨].

فها هم البشر جميعًا من أول البشرية إلى قيام الساعة، ها هم جميعًا محشورون، معروضون، بارزون، صامتون، خاشعون، خاضعون فيوئذ يتضاءل المتكبرون، وينزوى المتجبرون، وبينما هم كذلك إذا برب العزة يناديهم: لمن الملك اليوم؟ والملك فى كل وقت وحين هو لله الواحد القهار، ولكن الجبابرة الطغاة كانوا يظنون وهم فى الدنيا أن الملك لهم! كانوا يظنون أنهم آلهة!! ولكن حينما تظهر هذه الآلهة عاجزة أمام كل البشر متضائلة منزوية تنكشف لها الحقائق التى طالما عميت عنها فى الدنيا وفى هذا الموقف العصيب ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ يقول صاحب الظلال – رحمه الله – « فالكل مكشوف. مكشوف

الجسد، مكشوف النفس، مكشوف الضمير، مكشوف العمل، مكشوف المصير، وتسقط جميع الأستار التى كانت تحجب الأسرار، وتتعرى النفوس تعرى الأجساد، وتبرز الغيوب بروز الشهود .. ويتجرد الإنسان من حيطته ومن مكره ومن تدبيره ومن شعوره، ويفتضح منه ما كان حريصًا على أن يستره حتى عن نفسه! وما أقسى الفضيحة على الملأ وما أخزاها على عيون الجموع! أما عين الله فكل خافية مكشوفة لها فى كل آن، ولكن لعل الإنسان لا يشعر بهذا حق الشعور، وهو مخدوع بستور الأرض. فها هو ذا يشعر به كاملاً وهو مجرد فى يوم القيامة. وكل شئ بارز فى الكون كله. الأرض مدكوكة مسواة لا تحجب شيئًا وراء نتوء ولا بروز. والسماء متشققة واهية لا تحجب وراءها شيئًا، والأجسام معراة لا يسترها شئ، والنفوس كذلك مكشوفة ليس من دونها ستر وليس فيها سر! ألا إنه لأمر عصيب. أعصب من دك الأرض والجبال، وأشد من تشقق السماء! وقوف الإنسان عريان الجسد، عريان النفس، عريان المشاعر، عريان التاريخ، عريان العمل، ما ظهر منه وما استتر. أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله، من الإنس والجن والملائكة، وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع»(1).

الظالم والمظلوم فى ساحة المحكمة:

يا له من موقف يعرض المتخاصمون فيه على الله ليحكم بينهم، يوم يقف الظالم المتجبر المتكبر المتغطرس؛ أمام الله، وقد تضاءل وصغر، كحشرة صغيرة! يا له من موقف لو تذكره الطغاة، ووعاه الظالمون أما الذين ظُلموا وأوذوا فى الله فقد واتتهم اللحظة التى كانوا طالما تذكروها فكانت عونًا لهم على الصبر والاحتمال، اللحظة التي كانت أملهم الذى يعيشون عليه، حينما قال لهم الله: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣](2).

---

(١) فى ظلال القرآن جـ٦ ص ٣٦١٠.

(٢) معنى مهطعين: مسرعين، مقنعى رؤوسهم: وجوههم إلى السماء لا ينظر أحدهم لأحد، لا يرتد إليهم طرفهم: لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر، افئدتهم هواء: خالية.

تطـــاير الصحـــف

والمراد بالصحف هى الكتب التى كتبتها الملائكة، فسجلت فيها أعمال الناس فى الدنيا، من أقوال وأفعال واعتقادات.

وهذه الصحف لا يأخذها الأنبياء ولا الملائكة، ولا الذين يدخلون الجنة بغير حساب؟ لأنهم لا يحاسبون.

يقول الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ [الحاقة: ١٩ – ٢٩].

وتتحدث هذه الآيات عن صنفين من الناس:

الصنف الأول: يتلقون كتبهم بأيمانهم، وهؤلاء لا يناقشون الحساب، فعن عائشة – رضى الله عنها – أن رسول الله ﷺ قال: «ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك»، فقلت يا رسول الله: أليس قد قال الله: ﴿ **فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا** ﴾ فقال رسول الله ﷺ – «إنما ذلك العرض وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب» (١) وعن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – قال: سمعت رسول الله – ﷺ – يقول: «إن الله عز وجل يدنى المؤمن، فيضع عليه كنفه، ويستره من الناس، ويقرر بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه،

---

(١) رواه البخارى (١/ ٢٣٧) العلم: باب من سمع شيئًا فراجع حتى يعرفه، ورواه مسلم: كتاب الجنة: إثبات الحساب (٢٨٧٦)، ورواه الترمذى (١١/ ٢٥٨) صفة القيامة، والمقصود بالمناقشة: الاستقصاء فى المحاسبة، والمطالبة بالجليل والحقير وترك المسامحة.

ورأى فى نفسه أنه قد هلك، قال: فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا، وإنى أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فـ « يقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين »(1) .

الصنف الثانى: وهم الذين يأخذون كتبهم بشمائلهم أو من وراء ظهورهم، وهؤلاء يناقشون الحساب، فيسألون عن كل جزئية فيهلك مع الهالكين، ﴿ **وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً * وَيَصْلَىٰ سَعِيراً * إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً * إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ * بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً** ﴾

[الانشقاق: ١٠ – ١٥]

ويا له من موقف عصيب، حينما يمسك بكتابه، فيقال له: « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » .

ينظر الإنسان فى كتابه، فيجد تاريخه الذى سطره بأعماله، يقرأ، ويتذكر، ولا يستطيع أن ينكر منه شيئاً .

* * *

(1) رواه البخارى ومسلم، ورواه أحمد فى المسند جـ٧، حديث رقم (٥٤٣٦) .

الحســــــاب

وهو توقيف الله – سبحانه وتعالى – عباده قبل الإنصراف من المحشر على أعمالهم أقوالاً وأفعالاً واعتقاداً تفصيلاً بعد أخذهم كتبهم، وكيفيته من الأمور الغيبية التى لم يرد ما يدل عليه.

حكمة الحساب: يعلم الله تعالى بأعمال العباد، ولكن الحساب إظهار لفضل المتقين وفضيحة للفجار على رؤوس الأشهاد، ليُسرَ المتقون، ويُساءَ الفجار المجرمون.

يقول الله تعالى: ﴿ **وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً** ﴾ [الكهف: ٤٩].

فها هم المجرمون يُوَاجَهون بتاريخهم الأسود الذى سطروه فى حياتهم الدنيا، فحينئذ يعرفون المصير الذى ينتظرهم فيساءون أما المؤمنون فيفرحون حينما ينادى الله تبارك وتعالى: يا عبادى أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين يا عبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون، أحضروا حجتكم، ويسروا جوابكم، فإنكم مسئولون، محاسبون، يا ملائكتى أقيموا عبادى صفوفًا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب».

أول من يحاسب:

عن ابن عباس – رضى الله عنهما – عن النبى – ﷺ – قال: «نحن آخر الأمم وأول من يحاسب، يقال: أين الأمة الأمية ونبيها؟ فنحن الآخرون الأولون»[1].

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٩٠) الزهد، وإسناده صحيح.

ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة :

١ – أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت صلح سائر العمل، وإن فسدت فسد سائر العمل؛ وأول ما يقضى فيه بين الناس الدماء.

فعن عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « أول ما يحاسب عليه العبد الصلاة، وأول ما يقضي بين الناس الدماء » (١).

٢ – يحاسب العبد ويُسأل عن جوارحه، هل حفظها، وأدى شكر الله فيها أم لا؟

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٦].

٣ – يحاسب العبد على عمره، كيف قضاه؟ وعن شبابه فيم أهلكه؟ وعن ماله كيف اكتسبه؟ وكيف أنفقه.

فعن أبى برزة – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به » (٢).

٤ – يحاسب العبد على نعم الله التى أنعم بها عليه، هل شكرها؟ أم جحدها؟ وحارب الله بنعمه عليه؟.

يقول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨].

فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : لما نزلت هذه الآية، قال الناس :

---

(١) رواه النسائى.

(٢) رواه الترمذى (٩/٢٥٣) صفة القيامة، وقال حسن صحيح، وحسنه الألبانى لشواهده فى الصحيح، ورواه البزار والطبرانى عن معاذ بن جبل وإسناده صحيح.

يا رسول الله : عن أى نعيم نسأل ؟! فإنما هما الأسودان والعدو حاضر ، وسيوفنا على عواتقنا، قال : إن ذلك سيكون » (١).

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ « إن أول ما يسأل عنه – العبد – يوم القيامة، من النعيم أن يقال له : ألم نصح لك جسمك ونروك من الماء البارد »؟! (٢).

ويقول عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر ثم يقول الله له يا ابن آدم : ما غرك بى؟ يا ابن آدم : ماذا عملت فيما علمت؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟ يا ابن آدم : ألم أكن رقيبًا على عينيك وأنت تنظر بها إلى ما لا يحل لك؟ ألم أكن رقيبًا على أذنيك؟ وهكذا جوارحه كلها.

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال : يقول الله تعالى – يوم القيامة – « يا ابن آدم : حملتك على الخيل والإبل وزوجتك النساء، وجعلتك تربع وترأس، فأين شكر ذلك؟ » (٣).

القصاص ورد المظالم :

تتحقق العدالة المطلقة يوم الحساب، فيعطى كل ذى حقه، فيؤخذ الحق من الظالم ليعطى للمظلوم.

فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : « لتؤدون الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » (٤).

---

(١) رواه الترمذى، والأسودان : هما التمر والماء، وقوله : « إن ذلك سيكون » له توجيهان : الأول : أنكم ستسألون عنهما (التمر والماء) والثانى : أن الله سيعطيكم النعم ثم تسألون عنها.

(٢) أخرجه الترمذى (جـ ٥ / ٣٣٥٨)، وصححه الألبانى فى الصحيح (٢ / ٥٣٩) ومعنى : ألم نصح لك جسمك : ألم نجعله معافى سليمًا؟
ونروك من الماء البارد : وننعم عليك بحاجتك منه.

(٣) رواه أحمد وإسناده صحيح، وهو فى كنز العمال (جـ ٣ / ٦٤٨٦) معزوا للبيهقى فى شعب الإيمان. ومعنى : ترأس : تصير رئيسًا، تربع : تأخذ ربع الغنيمة.

(٤) رواه مسلم : كتاب البر والصلة – باب تحريم الظلم جـ ١٦ ص ١٣٦ النووى ورواه الترمذى (٩ / ٢٥٥) الزهد.

ويقول ﷺ: «لتؤدون الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، ويسأل الحجر لِمَ انكب على الحجر؟ ولِمَ نكأ الرجل الرجل؟ (جرحه).

قال: وكنا نسمع أن الرجل يتعلق بالرجل يوم القيامة وهو لا يعرفه فيقول: كنت تراني على الخطأ وعلى المنكر ولا تنهاني» (١).

ويقول عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - يؤخذ بيد العبد - أو الأمة - فينصب على رؤوس الأولين والآخرين ثم ينادى مناد: هذا فلان ابن فلان فمن كان له حق فليأت إلى حقه فتفرح المرأة بأن يدون لها الحق على ابنها أو أختها أو ابنها أو على زوجها، فيقول الله تعالى للعبد: إيت هؤلاء حقهم، فيقول: يارب فنيت الدنيا فمن أين أوتيهم؟ فيقول للملائكة: خذوا من أعماله الصالحة فاعطوا كل إنسان بقدر طلبته فإن فضلت من حسناته مثقال حبة من خردل من خير ضاعفها حتى يدخله بها الجنة ثم قرأ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الرعد: ٤١].

وإن كان عبداً شقياً قالت الملائكة: رب فنيت حسناته، وبقى طالبون، فيقول للملائكة: خذوا من أعمالهم السيئة فأضيفوها إلى سيئاته، وصكوا له صكاً إلى النار،

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا؛ فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار» (٢).

---

(١) رواه مسلم والترمذى.

(٢) رواه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم (جـ ١٦ ص ١٣٥) شرح النووى، ورواه أحمد فى المسند جـ ١٥ - حديث رقم (٨٠١٦).

الشهود على الإنسان يوم القيامة :

يشهد على العاصى يوم القيامة أحد عشر شاهداً: اللسان، والأيدى، والأرجل، والسمع، والبصر، والجلد، والأرض، والليل والنهار، والحفظة الكرام، والمال، فضلاً عن الشهداء من الناس.

يقول الله تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [يس: ٦٥].

ويقول تعالى: ﴿ **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [النور: ٢٤].

ويقول تعالى: ﴿ **وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [فصلت: ١٩ – ٢٣].

وعن أنس – رضى الله عنه – قال: «كنا عند النبى ﷺ فضحك فقال: أتدرون مما أضحك؟ فقلنا الله ورسوله أعلم. فقال: من مخاصمة العبد ربه، فيقول: يارب ألم تجرنى من الظلم. قال: فيقول: بلى. فيقول: فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهداً منى. قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيختم على فيه فيقال لأركانه: انطقى فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول – يعنى لأعضائه – بعداً وسحقاً، لكن، فعنكن كنت أجادل» (١).

---

(١) رواه مسلم: كتاب الزهد جـ١٨

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قرأ رسول الله ﷺ: « يومئذ تحدث أخبارها » فقال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: « فإن أخبارها أن تشهد على عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا، قال: فهذه أخبارها »(١).

وعن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ قال: « إن هذا المال خضرة حلوة، ونعم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل، وإنه من يأخذ بغير حقه كان كالذى يأكل ولا يشبع، ويكون شهيداً عليه يوم القيامة »(٢).

وروى فى الحديث أنه ما من يوم يأتى على ابن آدم إلا ينادى فيه: يا ابن آدم: أنا خلق جديد، وأنا فيما تعمل عليك شهيد. فاعمل خيراً أشهد لك به غداً، فإنى لو مضيت لن ترانى أبداً، ويقول الليل مثل ذلك » (٣).

ويقول الله تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [ق: ٢١].

حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا :

حرى بالإنسان، وقد علم أنه مسئول أمام الله تعالى، ومحاسب على كل شيء؛ والشهود عليه كثيرون، حرى به أن يتحلل من المظالم فى الدنيا؛ قبل ألا يكون درهم أو دينار، يقول عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا وتهيئوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » (٤).

فينبغى على العاقل أن يسأل نفسه ويحاسبها عن كل لحظة من عمره ليعرف أتكون فى حسناته أم سيئاته؟

يقول على – رضى الله عنه – : « من أمضى يومه فى غير حق قضاه أو فرض أداه، أو مسجد بناه، أو حمد حصله، أو علم اقتبسه، فقد يومه وظلم نفسه ».

---

(١) رواه الترمذى، جـ ٤ حديث رقم (٢٤٢٩) وقال حسن صحيح.
(٢) رواه مسلم. (٣) رواه أبو نعيم فى الحلية.
(٤) رواه الترمذى (٩ / ٢٨٢) صفة القيامة.

فضل الله وكرمه :

عن عائشة – رضى الله عنها – كانت تقول : قال رسول الله ﷺ : « سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لن يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » (١).

وروى الطبرانى عن واثلة بن الأسقع – رضى الله عنه – عن رسول الله ﷺ قال : « يبعث الله يوم القيامة عبداً لا ذنب له . فيقول الله : أى الأمرين أحب إليك ؟ ان أجزيك بعملك أو بنعمتى عندك؟ قال : يارب : إنك تعلم أنى لم أعصك . . قال : خذوا عبدى بنعمة من نعمى فما تبقى له حسنة إلا استغرقتها تلك النعمة، فيقول : رب بنعمتك ورحمتك، فيقول بنعمتى ورحمتى ».

وروى البزار عن أنس – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : « يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين : ديوان فيه العمل الصالح، وديوان فيه ذنوبه، وديوان فيه النعم من الله عليه، فيقول الله – عز وجل – لأصغر نعمة خذى ثمنك من عمله الصالح فتستوعب عمله الصالح، ثم تنحى وتقول وعزتك وجلالك ما استوفيت وتبقى الذنوب والنعم وقد ذهب العمل الصالح، فإذا أراد الله أن يرحم عبداً قال : ياعبدى قد ضاعفت لك حسناتك وتجاوزت عن سيئاتك، ووهبت لك نعمى ».

الذين يدخلون الجنة بغير حساب :

عن عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما – قال : قال النبى ﷺ : « عرضت علىَّ الأمم، فأخذ النبى يمر معه الأمة، والنبى يمر معه النفر، والنبى يمر معه العشرة، والنبى يمر معه الخمسة، والنبى يمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير، قلت : ياجبريل هؤلاء أمتى؟ قال : لا ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد كثير، قال : هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفاً قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب . قلت :

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

ولم؟ قال: كانوا لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون.
فقام إليه عكاشة بن محصن فقال:

ادع الله أن يجعلني منهم. قال: اللهم اجعله منهم. ثم قام إليه رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: سبقك بهاعكاشة» [١].

* * *

الحوض

جعل الله تعالى لكل رسول حوضاً يرده الطائعون من أمته، وحوض النبى محمد ﷺ أكبرها وأعظمها.

صفته: يقول صاحب شرح العقيدة الطحاوية، بعد أن ساق أحاديث الحوض: «والذى يتخلص من الأحاديث الواردة فى صفة الحوض: أنه حوض عظيم، ومورد كريم، يمد من شراب الجنة، من نهر الكوثر، الذى هو أشد بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحاً من المسك، وهو فى غاية الاتساع، عرضه وطوله سواء، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر. وفى بعض الأحاديث: أنه كلما شرب منه وهو فى زيادة واتساع، وأنه ينبت في خلاله من المسك والرضراض من اللؤلؤ وقضبان الذهب، ويثمر الجواهر، فسبحان الخالق الذى لا يعجزه شىء» [٢].

فعن أنس – رضى الله عنه – قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله قال: أنزلت علىَّ آنفاً سورة فقرأ:

---

(١) رواه البخارى: كتاب الرقاق – باب: يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، حديث رقم (٦٥٤١).
ومعنى لا يكتوون: لا يستخدمون الكى بالنار، لا يسترقون: لا يطلبون الرقية من أحد، لا يتطيرون: لا يتشاءمون كما كانوا فى الجاهلية.
(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٦٨

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر].

ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ فقلنا: الله ورسوله أعلم. قال:

« فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير هو حوضٌ تَرِدُ عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم فَيُخْتَلجُ العبدُ منهم فأقول: رب إنه من أمتي فيقولُ: ما تدري ما أحدَثَتْ بعدك » (١).

وعن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنه – قال: قال النبي ﷺ حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منها فلا يظمأ أبداً » (٢).

وعن أنس – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ إن قدر حوضي كما بين أيلة وصنعاء من اليمن، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء »(٣).

الذين يُصرفون عن الحوض:

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: « بينا أنا نائم فإذا زمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال هلمَّ، فقلت أين؟ قال: إلى النار والله، قلت وما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى. ثم إذا زمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال: هلمَّ، قلت أين؟ قال: إلى النار والله. قلت: ما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم » (٤).

---

(١) رواه مسلم والنسائي..
ومعنى يُختَلجُ: يُنْتَزعُ ويُقْتَطعُ.

(٢) رواه البخاري: كتاب الرقاق، باب في الحوض، حديث رقم (٦٥٧٩).

(٣) رواه البخاري: كتاب الرقاق، باب في الحوض، حديث رقم (٦٥٨٠).

(٤) رواه البخاري: كتاب الرقاق، باب في الحوض، حديث رقم (٦٥٨٧)، ومعنى همل النعم: الإبل التي بلا راع.

ويقول ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض، ومن ورد شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً وليردَنَّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفوننى، ثم يحال بينى وبينهم. فيقول ﷺ إنهم أمتى، فيقال: إنك لا تدرى ما عملوا بعدك، فأقول: سُحقاً سُحقاً لمن بدل بعدى»[1].

وعن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى ممسك بحجزكم عن النار: هَلُمَّ عن النار، وتغلبوننى تقاحمون فيه تقاحم الفراش أو الجنادب، فأوشك أن أرسل بحجزكم، وأنا فرطكم على الحوض، فتردون على معاً وأشتاتاً، فأعرفكم بسيماكم وأسمائكم، كما يعرف الرجل الغريبة من الإبل فى إبله، ويُذهَب بكم ذات الشمال، وأناشد فيكم رب العالمين فأقول أى رب أمتى!! فيقول: يامحمد! إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك، إنهم كانوا يمشون بعدك القهقهرى على أعقابهم، فلا أعرفن أحدكم يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء، فينادى: يامحمد! فأقول لا أملك لك شيئاً، قد بلغتك، فلا أعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل بعيراً له رغاء، فينادى: يامحمد يامحمد! فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد بلغتك، فلا أعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل فرساً له حَمْحَمَةٌ فينادى: يامحمد يامحمد! فأقول: لا أملك لك شيئاً قد بلغتك، فلا أعرفن أحدكم يوم القيامة يحمل سقاء من أدَم ينادى: يامحمد يامحمد! فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد بلغتك»[2].

ويؤخذ من هذه الأحاديث أن من الذين يصرفون عن الحوض:

١ – الذين ابتدعوا فى الدين بالزيادة والنقصان.

٢ – الذين حادوا عن المنهج الذى جاء به الرسول ﷺ.

٣ – المنافقون الذين تظاهروا بالإسلام وأبطنوا الكفر.

---

(١) رواه مسلم، جـ ١٥، ص ٥٣، ٥٤ (شرح النووى).

(٢) رواه البزار بإسناد حسن (١ / ٩٠٠)، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (رقم ٧٨٢). ومعنى حمحمة: صوت الفرس. الرغاء: صوت البعير، الثغاء: صوت الغنم. القشع: القربة اليابسة.

٤ – الذين كانوا يسرقون من الأموال العامة (الغلول) .

﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران : ١٦١] .

أعوان الظلمة لا يردون الحوض :

فعن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : « سيكون عليكم أمراء يأمرونكم بما لا يفعلون، فمن صدقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم؟ فليس منى ولست منه، ولن يرد على الحوض » (١) .

* * *

الميـزان

يقول الله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

ويقول تعالى : ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف : ٨ – ٩] .

ويقول تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ [القارعة : ٦ – ٩] .

والراجح من الأقوال أنه ميزان حقيقى، له كفتان، وأن الله تعالى يحول أعمال العباد إلى أجسام لها ثقل، فتوضع الحسنات فى كفة، والسيئات فى كفة .

وعن أنس بن مالك – رضى الله عنه – مرفوعاً – قال : ملك موكل بالميزان فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتى الميزان . . فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق : سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً وإن خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق : شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً » (٢) .

---

(١) رواه أحمد فى مسنده، بإسناد صحيح (جـ ٨ حديث رقم ٥٧٠٢) .
(٢) رواه البيهقى والبزار .

ما يثقل ميزان العبد يوم القيامة :

هناك من الأعمال ما قد يحتقره الإنسان وهو فى ميزان الله عظيم، ومن ذلك :

١ – التسبيح والتحميد : يقول رسول الله ﷺ : « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » (١).

فالله عز وجل كريم جواد، يجود بكرمه وبفضله على العبد المخلص، فيجزل له العطاء ويثقل به موازينه.

٢ – الصلاة على النبى ﷺ فقد روى القشيرى فى تفسيره : « إذا خفت حسنات المؤمن أخرج – رسول الله ﷺ – بطاقة كالأنملة . . فيلقيها فى كفة الميزان اليمنى التى فيها حسناته فترجح الحسنات . . فيقول ذلك العبد المؤمن للنبى ﷺ : بأبى أنت وأمى . . ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك . . فمن أنت ؟

فيقول : أنا محمد نبيك . . وهذه صلواتك التى كنت تصلى على قد وفيتك أحوج ما تكون إليها » .

٣ – النطق بشهادة التوحيد : فعن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله – عز وجل – يستخلص رجلاً من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مد البصر، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتى الحافظون ؟ قال : لا يارب . قال : أفلك عذر أو حسنة ؟ قال : فيهاب الرجل فيقول لا يارب . فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم عليك اليوم فيخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ فيقول : أحضروه فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول : إنك لا تظلم : فتوضع السجلات فى كفة

---

(١) رواه البخارى : كتاب الدعوات جـ ١١ ، عن أبى هريرة، ورواه مسلم : كتاب الذكر والدعاء جـ ١٧ ، عن أبى هريرة.

والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل شيء مع بسم الله الرحمن الرحيم » [١].

ما كان لغير الله: قد يعمل الإنسان عمل الخير وهو لا يريد به وجه الله تعالى – رياءً – وقد يعمل العمل على غير إيمان بالله تعالى، فلا يقيم الله لهؤلاء ولا لهؤلاء وزناً. يقول تعالى: ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا** ﴾ [الفرقان: ٢٣].

ويقول أبو سعيد الخدري: يؤتى بأعمال كجبال تهامة فلا تزن شيئاً.

* * *

الصراط

والصراط هو الجسر المنصوب على جهنم ليمر الناس فوقه بعد انصرافهم من الموقف بعد الحساب والميزان، فمنهم من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح العاصف، وناس كالجواد، وناس يهرولون، وناس يحبون، وناس يزحفون، وناس يتساقطون في النار، وعلى جوانبه كلاليب، لا يعلم عددها إلا الله تخطف بعض الخلائق والمرور على الصراط عام لكل الناس: الأنبياء والصديقين والمؤمنين، والكفار، ومن يحاسب ومن لا يحاسب.

فمن كان مستقيماً على دين الله في الدنيا استقام على الصراط في الآخرة يقول الله تعالى: ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا** ﴾ [مريم: ٧١ – ٧٢].

وقد روى الحاكم عن قيس بن أبي حازم قال: كان عبد الله بن رواحة واضعاً رأسه في حجر امرأته فبكى فبكت امرأته. فقال ما يبكيك قالت: رأيتك تبكي

---

(١) رواه الترمذي (١٠/١٠٧) في كتاب الإيمان وقال: حسن غريب، ورواه ابن ماجه (٤٣٠٠)، ورواه الحاكم (١/٥٢٩) وصححه ووافقه الذهبي على تصحيحه وصححه الألباني في الصحيحة (١/٤٣، ٤٤).

فبكيت. قال: إني ذكرت قول الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ ولا أدرى أنجو منها أم لا؟

وعن أم مبشر الأنصارية – رضى الله عنها – أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة – رضى الله عنها – : «لا يدخل النار – إن شاء الله – من أهل الشجرة أحد – (الذين بايعوا تحتها)».

قالت: بلى يارسول الله.. فانتهرها.. فقالت حفصة «وإن منكم إلا واردها. فقال النبى ﷺ: قد قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ (١).

صفة الصراط:

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – « . . . ويضرب الصراط بين ظهرى جهنم، فأكون أنا وأمتى أول من يجيزها، ولا يتكلم إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم، وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم السعدان؟ قالوا: نعم يارسول الله، قال فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم ما قدر عظمها إلا الله عز وجل تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم الموبَقُ بعمله والموثق بعمله ومنهم المخردل أو المجازى أو نحوه» (٢).

وفى حديث أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – « . . . ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهرى جهنم. قلنا يارسول الله ما الجسر؟ قال مدحضة مزلة عليه خطاطيف وكلاليب وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء تكون بنجد يقال لها

---

(١) رواه مسلم: انظر صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٦ ص ٥٧، ورواه ابن ماجه (٤٢٨١) الزهد.

(٢) رواه البخارى جـ ١١، كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم رقم (٦٥٧٣) ورواه مسلم جـ ١، والسعدان: نبات ذو شوك، الموبق: الهالك، الموثق، من الوثاق، المخردل: المقصود أن الكلاليب تقطعه فيهوى فى النار.

السعدان، يمر المؤمن عليها كالطرف، وكالبرق، وكالريح وكأجاويد الخيل، والركاب فناج مسلم وناج مخدوش ومكردس فى نارجهم حتى يمر آخرهم يسحب سحباً »(١).

عند الصراط لا يذكر أحد أحداً :

عن عائشة – رضى الله عنه – أنها ذكرت النار فبكت فقال رسول الله ﷺ : ما يبكيك؟ قالت : ذكرت النار فبكيت فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ : أما فى ثلاث مواطن فلا يذكر أحد أحداً . عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل؟ وعند الكتاب حيث يقال : « هاؤم اقرءوا كتابيه » حتى يعلم أين يقع كتابه فى يمينه أم فى شماله أم من وراء ظهره؟ وعند الصراط إذا وضع بين ظهرى جهنم حتى يجوز » (٢).

القنطرة بين الجنة والنار: إذا عبر المؤمنون الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص من بعضهم لبعض، فإذا هذبوا أذن لهم فى دخول الجنة .

فعن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله فى الدنيا »(٣).

وروى الطبرانى عن أبى أمامة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « يجيء الظالم يوم القيامة حتى إذا كان على جسر جهنم بين الظلمة والوعرة . . لقيه المظلوم فعرفه وعرف ما ظلمه به فما يبرح الذين ظُلموا يقصون من الذين ظلموا حتى ينزعوا ما فى أيديهم من الحسنات فإن لم يكن لهم حسنات رد عليهم من سيئاتهم حتى يوردوا الدرك الأسفل من النار » .

---

(١) رواه الحاكم (٤ /٥٨) وقال صحيح على شرط الشيخين.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) رواه البخارى : كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، حديث رقم (٦٥٣٥).

حوار بين المؤمنين والمنافقين:

يقول الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [الحديد: ١٢، ١٤].

* * *

أصحاب النار وأصحاب الجنة

يقول الله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة: ١٨، ٢٠].

ويقول تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١].

ويقول تعالى: ﴿ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر: ٢٠].

ويقول تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ [القلم: ٣٥].

فهذه الآيات تبين أن أصحاب الجنة وأصحاب النار مختلفون فى الجزاء؛ لأنهم كانوا مختلفين فى العمل.

فهم مختلفون فى السلوك، مختلفون فى الوجهة، مختلفون فى المنهج،

مختلفون فى الاهتمامات، مختلفون فى الطباع، مختلفون فى أهدافهم وغاياتهم؛ ومن ثم فلا بد وأن يختلفوا فى المصير والمآب، لذا فإن لهؤلاء صفات ولهؤلاء صفات.

أولاً : صفات أصحاب الجنة :

يقول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢].

ويقول تعالى : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٢].

ويقول تعالى : ﴿ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ [النور: ١٦].

فالله سبحانه وتعالى جعل الطيب بحذافيره فى الجنة، وجعل الخبيث بحذافيره في النار، فجعل الدور ثلاثة : داراً أخلصت للطيبين وهى حرام علي غيرهم، وقد جمعت كل طيب، وهى الجنة وداراً أخلصت للخبيثين فلا يدخلها إلا هم، وهى النار، وداراً امتزج فيها الطيب والخبيث وخلط بينهما وهى دار الدنيا.

يقول الله تعالى : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم:٦٣].

ولأصحاب الجنة صفات شخصية، يتميزون بها عن غيرهم ومن هذه الصفات الشخصية :

١ - يقول تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ - ١١].

ولقد سُئلت عائشة – رضى الله عنها – عن خلق رسول الله ﷺ – فقالت: كان خلقه القرآن، ثم قرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾. وقالت: هكذا كان رسول الله ﷺ(١).

٢ – عن على – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة غرفاً يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها، فقام أعرابى فقال: لمن هى يارسول الله؟ قال لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام» (٢).

٣ – عن عياض بن عمار المجاشعى، أن رسول الله ﷺ قال يوماً فى خطبته «أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رخيم رقيق القلب لكل ذى قربى، ومسلم عفيف ضعيف متضعف ذو عيال» (٣).

٤ – عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضى الله عنهما – عن رسول الله ﷺ قال: «هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟

قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء والمهاجرون الذين تُسَدُّ بهم الثغورُ، ويُتَّقى بهمُ المكارهُ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاءً، فيقول الله عز وجل لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيُّوهم، فتقول الملائكة: «نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن تَأتىَ هؤلاء فنسلم عليهم؟

قال: إنهم كانوا عباداً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً وتُسَدُّ بهم الثغور، ويتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء، قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب: «سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار» (٤).

---

(١) رواه النسائى.
(٢) رواه أحمد (٥ / ٣٤٣)، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١١٩).
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه أحمد فى مسنده، وإسناده صحيح (جـ ١٠ / ٦٥٧٠).

٥ – عن عبد الله بن عمرو – رضى الله عنهما – قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن أول ثلة تدخل الجنة لفقراء المهاجرين الذين يتقى بهم المكاره، وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا وإذا كانت لرجل منهم حاجة إلى السلطان لم تقض له حتى يموت وهى فى صدره، وإن الله عز وجل يدعو يوم القيامة الجنة فتأتى بزخرفها وزينتها» فيقول:

أى عبادى الذين قاتلوا فى سبيلى وقتلوا، وأوذوا فى سبيلى، وجاهدوا فى سبيلى، أدخلوا الجنة فيدخلونها بغير حساب ولا عذاب» (١).

٦ – عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال: «من كان له ثلاث بنات فصبر على لأوائهن، وضرائهن وسرائهن، أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهن. فقال رجل: أو ثنتان يارسول الله. قال: أو ثنتان. فقال رجل: أو واحدة يارسول الله. قال: أو واحدة» (٢).

٧ – عن أبى هريرة – رضي الله عنه – أن أعرابياً جاء إلى النبى ﷺ فقال: دلنى على عمل إذا عملته دخلت الجنة. قال: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان قال: والذى نفس محمد بيده لا أزيد على هذا شيئاً أبداً، ولا أنقص منه، فلما ولى قال النبى ﷺ من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا (٣).

٨ – وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «إذا عاد المسلم أخاه، أو زاره قال الله عز وجل: طبت وطاب ممشاك وتبوأت فى الجنة منزلاً» (٤).

---

(١) رواه أحمد فى مسنده، وإسناده صحيح (جـ ١٠ / ٦٥٧١).

(٢) رواه أحمد فى مسنده بإسناد صحيح، جـ ١٦، حديث رقم (٨٤٠٦)، واللأواء: الشدة، الضراء: الشدة أيضاً، السراء: الرخاء.

(٣) رواه أحمد فى المسند، وإسناده صحيح جـ ١٦، حديث رقم (٨٤٩٦).

(٤) رواه أحمد فى المسند، وإسناده حسن جـ ١٦، حديث رقم (٨٥١٧).

٩ – وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: « .... وسئل عن أكثر ما يلج الناس به الجنة، فقال رسول الله ﷺ: حسن الخلق » (١).

١٠ – عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال: « دخل عبد الجنة بغصن شوك على ظهر طريق المسلمين فأماطه عنه » (٢).

١١ – عن أبى هريرة – أو أبى سعيد – (الشك من الأعمش الراوى عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ: إن لله ملائكة سياحين فى الأرض، فضلاً عن كتاب الناس، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى بغيتكم، فيجيئون، فيحفون بهم إلى السماء الدنيا، فيقول الله: أى شيء تركتم عبادى يصنعون؟ فيقولون: تركناهم يحمدونك ويمجدونك ويذكرونك، فيقول: هل رأونى؟ فيقولون: لا، فيقول: فكيف لو رأونى؟ فيقولون: لو رأوك لكانوا أشد تحميداً وتمجيداً وذكراً، فيقول: فأى شيء يطلبون؟ فيقولون: يطلبون الجنة، فيقول: وهل رأوها؟ قال: فيقولون: لا، فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقول: لو رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً، قال: فيقول ومن أى شيء يتعوذون؟ فيقولون: من النار، فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا، قال: فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد منها هرباً، وأشد منها خوفاً، قال: فيقول: إنى أشهدكم أنى قد غفرت لهم، قال: فيقولون: فإن فيهم فلاناً الخطاء، لم يردهم، إنما جاء لحاجة، فيقول: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » (٣).

لا يدخل الجنة أحد بعمله:

لا يظن أحد أن هذه الأعمال – وحدها – تضمن لصاحبها الجنة !! بل لابد من فضل الله وكرمه وجوده على العبد فيقبل منه أعماله هذه ويدخله الجنة. ويضرب لنا رسول الله ﷺ المثل فى ذلك فيقول: « لن يُدخِلَ أحداً منكم عملهُ

---

(١) رواه أحمد فى المسند، وإسناده صحيح جـ ١٥، حديث رقم (٧٨٩٤).
(٢) رواه أحمد فى المسند، وإسناده صحيح جـ ١٨، حديث رقم (٩٢٣٥).
(٣) رواه أحمد فى المسند، وإسناده صحيح جـ ١٣، حديث رقم (٧٤١٨).

الجنةَ، قالوا: : ولا أنت يارسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله منه بفضل ورحمة » (١).

أقرب طريق إلى الجنة :

يقول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ [التوبة: ١١١] .

ويقول تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ** ﴾ [الصف: ١٠ - ١٣].

فأقرب طريق إلى الجنة طريق الجهاد فى سبيل الله، طريق الشهادة من أجل العقيدة ذلك أن الشهيد يدفع ثمن الصفقة مرة واحدة بدلاً من أن يدفع على دفعات؛ لذا فإن الله يفى له بوعده إياه بالجنة بمجرد أن يدفع !

وفى غزوة بدر، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة، وقال وهو يحضهم على القتال: قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض، وحينئذ قال العمير بن الحمام: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ: ما يحملك على قولك بخ بخ؟ قال: لا، والله يارسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: فإنك من أهلها. فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال: أنا إن حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل » (٢).

---

(١) رواه أحمد فى المسند، وإسناده صحيح جـ ١٤، حديث رقم (٧٥٧٧).

(٢) رواه مسلم.

وفى غزوة أحد، حينما انكشف جيش المسلمين – بمخالفة الرماة – وأشيع أن رسول الله ﷺ قد قتل، وانهارت الروح المعنوية لكثير من الجنود وتوقف بعضهم عن القتال، وبينما هم كذلك مر بهم أنس بن النضر، وقد ألقوا بأيديهم فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: قتل رسول الله ﷺ، قال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله، ثم قال: اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعنى المسلمين، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعنى المشركين، ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ، فقال: أين أبا عمر؟ فقال أنس: واها لريح الجنة ياسعد، إنى أجده دون أحد، ثم مضى فقاتل القوم حتى قتل، فما عرف حتى عرفته أخته – بعد نهاية المعركة – ببنانه، وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم» (١).

ثانياً : صفات أصحاب النار :

هذه الدار جعلها الله للخبيثين من الكفار والمشركين، وأصحاب الشهوات والشبهات من العصاة الفاسقين.

يقول تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤].

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩].

ويقول تعالى: ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [الحج: ١٩ – ٢٢].

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ [البينة: ٦].

(١) زاد المعاد (٢/ ٩٣، ٩٦)، صحيح البخارى (٢/ ٥٧٩).

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: «قال النبى ﷺ تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: فما لى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟

فقال تعالى للجنة: أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى، وقال للنار: أنت عذابى أعذب بك من أشاء من عبادى ولكل واحدة منكما ملؤها»(١).

فالمتكبرون والمتجبرون هم أهل النار وأصحابها الذين جعلوا لها وجعلت لهم ،عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال: «لما خلق الله الجنة أرسل جبريل إلي الجنة فقال: انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. قال فجاءها ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها قال: فرجع إليه وقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها. قال: فأمر بها فحفت بالمكاره فقال: فارجع إليها فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها قال: فرجع إليها فإذا هى قد حفت بالمكاره فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد. قال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها فإذا هى يركب بعضها بعضاً فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خفت ألا يسمع بها أحد فيدخلها فأمر بها فحفت بالشهوات فقال ارجع إليها فرجع إليها فقال: وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد إلا دخلها»(٢).

وعن أنس – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»(٣).

وجاء فى حديث عياض بن عمار المجاشعى أن رسول ﷺ قال: «.... وأهل النار خمسة: الضعيف الذى لا زبر له الذين هم فيكم تبع لا يبتغون أهلاً ولا

---

(١) رواه البخارى: جـ٦ ص ١٧٣، ومعنى أوثرت: اختصصت، سقطهم: ضعفاؤهم، ورواه مسلم.

(٢) أخرجه الترمذى، وقال حديث حسن صحيح (جـ٤ / ٢٥٦٠)، وأخرجه أبو داود فى سننه (جـ٤ / ٤٧٤٤)، ورواه النسائى فى سننه جـ٧ ص ٣).

(٣) رواه مسلم: جـ١٧، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، ورواه الترمذى: كتاب صفة الجنة، حديث رقم (٢٥٥٩).

مالاً، والخائن الذى لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه ورجل لا يصبح ولا يمسى إلا وهو يخادعك عن أهلك ومـا لك وذكـر البـخل والكذب والشنظير الفحاش»(١).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال عند ذكر أهل النار: كل جَعْظَرِىّ جَوَّاظٍ مستكبر، جَمَّاعٍ مَنَّاعٍ (٢).

وروى الطبرى فى تفسيره عبرة الإسراء والمعراج: أن الرسول ﷺ مر فى ليلة الإسراء والمعراج على واد بين فى أحدهما الجنة بغرفها وحسنها، وفى ثانيهما النار بشرها وحرها.. وقد قالت الجنة: يارب ائتنى ما وعدتنى فقد كثرت غرفى، وحريرى وإستبرقى، وسندسى وعبقريى، ولؤلئى، ومرجانى، وفضتى، وذهبى، وصحافى، وأكوابى، وأباريقى، وكؤسى وعسلى، ومائى، ولبنى، وخمرى.. فائتنى ما وعدتنى.. فقال الله عز وجل: لك كل مسلم ومسلمة، ومؤمن ومؤمنة، ومن آمن بى وبرسولى وعمل صالحاً، ولم يشرك بى شيئاً، ولم يتخذ من دونى أنداداً، ومن خشينى فهو آمن، ومن سألنى أعطيته، ومن أقرضنى جزيته، ومن توكل على كفيته.. إنى أنا الله لا إله إلا أنا لا أخلف الميعاد، قد أفلح المؤمنون وتبارك الله أحسن الخالقين.. فقالت قد رضيت.

أما جهنم فقالت: (رب ائتنى ما وعدتنى. فقد كثرت سلاسلى، وأغلالى، وسعيرى، وضريعى، وغساقى، وقد بعد غورى، واشتد حرى.. فقال الله عز وجل: لك كل مشرك ومشركة، وكافر وكافرة، وكل خبيث وخبيثة، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب.. فقالت: قد رضيت).

وعن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» (٣).

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه أحمد فى المسند جـ ١٠، حديث رقم (٦٥٨٠) وإسناده صحيح، والجعظرى: الفظ الغليظ المتكبر، الجواظ: الجموع المنوع.
(٣) رواه أحمد فى مسنده، وإسناده صحيح، جـ ١٠، حديث رقم (٦٥٩٢).

وعن أبى هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار إلا شقى، قيل: ومن الشقى؟ قال: الذى لا يعمل بطاعة ولا يترك لله معصية»(١).

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: صنفان من أهل النار لا أراهما بعد: نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات على رءوسهن مثل أسنمة البخت المائلة لا يرين الجنة ولا يجدن ريحها، ورجال معهم أسواط كأذناب البقر يضربون بها الناس» (٢).

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يريد بها بأساً يهوى بها سبعين خريفاً فى النار»(٣).

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يلج الناس به النار؟ فقال: «الأجوفان: الفم والفرج، وسئل عن أكثر ما يلج الناس به الجنة، فقال رسول الله ﷺ: حسن الخلق»(٤).

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ يعنى قال الله – تعالى –: «الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحداً منهما أدخلته جهنم»(٥).

لا يخلد فى النار موحد

اعلم أن من مات على التوحيد – ولو ارتكب الكبائر – لا يخلد فى النار، أما من مات على الشرك والكفر فإنه لا يخرج منها أبداً، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

---

(١) رواه أحمد فى مسنده، وإسناده صحيح، جـ ١٦، حديث رقم (٨٥٧٨).
(٢) رواه أحمد فى مسنده، جـ ١٦، حديث رقم (٨٦٥٠)، وإسناده صحيح ورواه مسلم فى صحيحه.
(٣) رواه أحمد فى مسنده، جـ ١٥، حديث رقم (٧٩٤٥)، وإسناده صحيح.
(٤) رواه أحمد فى مسنده، وإسناده صحيح، جـ ١٥، حديث رقم (٧٨٩٤).
(٥) رواه أحمد فى مسنده، وإسناده صحيح، جـ ١٧، حديث رقم (٨٨٨١).

وهذا مقتضى العدالة الإلهية، ألا يسوى بين المسلم الذى أقر له بالوحدانية ولرسوله بالرسالة، ولكن غلبت عليه شقوته فارتكب بعض الكبائر – دون أن يستحلها – وبين المشرك الذى اتخذ مع الله آلهة أخرى، ومما لا شك فيه أن أكبر الكبائر الإشراك بالله، فينبغى ألا يتساوى عقاب الشرك مع عقاب أى ذنب آخر. فهب أن رجلين أحدهما قتل نفساً بغير حق، والآخر لطم رجلاً على وجهه فهل يتساوى العقاب فى الحالتين؟!

إذا كانت عدالة البشر تقضى ألا تتساوى العقوبات بتفاوت الجنايات، فكيف بالعدالة الإلهية !!، ثم إن الله تعالى يقدر العقاب بعلمه وعدالته، وقد يعفو بفضله ومنته.

يقول الإمام ابن القيم – رحمه الله – : «والمقصود أن الله – سبحانه وتعالى – جعل للسعادة والشقاوة عنواناً يعرفان به، فالسعيد الطيب لا يليق به إلا طيب، ولا يأتى إلا طيباً ولا يصدر منه إلا طيب، ولا يلابس إلا طيباً، والشقى الخبيث لا يليق به إلا الخبيث، ولا يأتى إلا خبيثاً، ولا يصدر منه إلا الخبيث، فالخبيث يتفجر من قلبه الخبث على لسانه وجوارحه، والطيب يتفجر من قلبه الطيب على لسانه وجوارحه.

وقد يكون فى الشخص مادتان، فأيهما غلب عليه كان من أهلها ، فإن أراد الله به خيراً طهره من المادة الخبيثة قبل الموافاة ، فيوافيه يوم القيامة مطهراً، فلا يحتاج إلى تطهيره بالنار، فيطهره منها بما يوفقه له من التوبة النصوح، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة، ويمسك عن الآخر مواد التطهير ، فيلقاه يوم القيامة بمادة خبيثة ، ومادة طيبة ، وحكمته تعالى تأبى أن يجاوره أحد فى داره بخبائثه، فيدخله النار طهرة له وتصفية وسبكاً، فإذا خلصت سبيكة إيمانه من الخبث صلح حينئذ لجواره ، ومساكنة الطيبين من عباده.

وإقامة هذا النوع من الناس فى النار على حسب سرعة زوال تلك الخبائث

منهم وبطئها، فأسرعهم زوالاً وتطهيراً أسرعهم خروجاً، وأبطؤهم أبطؤهم خروجاً، جزاءً وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد.

ولما كان المشرك خبيث العنصر، خبيث الذات، لم تطهر النار خبثه، بل لو خرج منها لعاد خبيثاً كما كان، كالكلب إذا دخل البحر ثم خرج منه، فلذلك حرم الله تعالى على المشرك الجنة ولما كان المؤمن الطيب المطيب مبرءاً من الخبائث، كانت النار حراماً عليه، إذ ليس فيه ما يقتضي تطهيره بها، فسبحان من بهرت حكمته العقول والألباب، وشهدت فطر عباده وعقولهم بأنه أحكم الحاكمين، ورب العالمين، لا إله إلا هو»[1].

* * *

(١) من كتاب «زاد المعاد» جـ١ ص ٢٢، ٢٣

نعيم الجنــة

لقد آن لأصحاب الجنة أن يستقروا في دار الفرح والسرور، ويتركوا دار الهموم والغموم، لقد آن للأجساد التى تفانت فى طاعة الله أن تستريح من العناء والشقاوة؛ لقد آن للذين كانوا يدعون ربهم رغباً ورهباً أن تقر أعينهم فى مستقر الرحمة الإلهية، يقول الله تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ [الطور: ٢٥ – ٢٨].

وعن أنس بن مالك – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: « يؤتى بأشد الناس – كان – بلاءً فى الدنيا من أهل الجنة فيقول: آصبغوه صبغة فى الجنة فيصبغونه فيها صبغة فيقول الله عز وجل يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط أو شيئاً تكرهه قط؟ فيقول: لا وعزتك ما رأيت شيئاً أكرهه قط ثم يؤتى بأنعم الناس كان فى الدنيا من أهل النار فيقول: اصبغوه فيها صبغة فيقول: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط قرة عين قط؟ فيقول: لا وعزتك ما رأيت خيراً قط ولا قرة عين قط »[1].

ياللعظمة !! بغمسة واحدة فى الجنة ينسى المؤمن الشدائد التى ألمت به؛ ينسى الآلام بأنواعها !! فما أهون هذه الحياة التى ينسى العبد آلامها بغمسة واحدة فى الجنة، وينسى متعها جميعاً بغمسة واحدة فى النار. إن المؤمن وهو يقبل على الله مضحياً مجاهداً يوقن أنها لحظات قصيرة ثم بعدها يجد نفسه يتمرغ فى نعيم الجنة. ولقد عاش سحرة فرعون هذه الحقيقة جيداً حينما خالط الإيمان بشاشة قلوبهم ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ * قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ

---

(١) رواه مسلم: (١٧ / ١٤٩) صفة القيامة، ورواه ابن ماجة فى سننه (جـ ٢ / ٤٣٢١).

وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ * قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ * وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾

[طه: ٧٠ – ٧٦]

* * *

وأتوابه متشابهاً

يقول ابن عباس – رضى الله عنهما –: «ليس فى الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء، فليس العسل كالعسل، وليس الخمر كالخمر، وليس العنب كالعنب».

فمهما قرأت فى وصف نعيم الجنة، ومهما خطر ببالك من صفتها فهى أعظم مما خطر ببالك، عن أبي هريرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ قال الله عز وجل: ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(١) [السجدة: ١٧].

أبواب الجنة:

للجنة ثمانية أبواب، كل باب يدخل منه أهله، فمن كانت الصلاة مدرسته التى تربى فيها وأثرت فيه أكثر من غيرها فهو يدخل من باب الصلاة، ومن كان الصيام مدرسته التى تربى فيها دخل من باب الريان، ومن كان الجهاد مدرسته دخل من باب الجهاد.

---

(١) رواه البخارى، كتاب بدء الخلق، باب (٨) ما جاء فى الجنة، ورواه مسلم: الجنة وصفة نعيمها (جـ١٧)، ورواه ابن ماجة: الزهد (٤٣٢٨).

فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجين من ماله فى سبيل الله دعى من أبواب الجنة كلها، وللجنة ثمانية أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الصيام، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد» فقال أبو بكر الصديق – رضى الله عنه – والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعى؛ فهل يدعى أحد منها كلها؟ قال: «نعم وأرجوا أن تكون منهم» (١).

درجات الجنة :

يقول رسول الله ﷺ: «وإن فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين فى سبيله» (٢).

وهذا لا ينفى أن يكون درج الجنة أكثر من ذلك، إذ أن هذه الدرجات لآحاد الأمة من المجاهدين، ولا شك أن رسول الله ﷺ يكون أعلى درجة من هذه الدرجات.

أعلى الجنة :

يقول رسول الله ﷺ: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة» (٣).

وعن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة يتراؤن الغرف كما يتراؤن الكوكب الدرى الغابر من الأفق عن المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم» (٤).

---

(١) رواه البخارى: فى فضائل الصحابة (٧/ ١٩)، ورواه مسلم: الزكاة (٧/ ١١٥، ١١٦)، ورواه النسائى (٦/ ٢٢، ٢٣) الجهاد.

(٢) رواه البخارى (٦/ ١١)، ورواه مسلم: الإمارة (١٣/ ٢٨)، والترمذى (١٠/ ٨) فى صفة الجنة، وابن ماجة: الزهد (٤٣٣١).

(٣) رواه البخارى (٦/ ١١)، ورواه مسلم (١٣/ ٢٨) الإمارة.

(٤) رواه البخارى (١١/ ٤١٦) الرقاق، ورواه مسلم (١٧/ ١٦٩) الجنة وصفة نعيمها.

أبنية الجنة :

يقول الله تعالى : ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

وهذا إخبار منه – تعالى – أن فى الجنة غرفاً مبنية فوق بعضها.

وعن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال: «إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لولؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلاً فيها أهلون، ويطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً»(١).

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال: «بناء الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة» (٢).

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قلنا: يارسول الله: إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة، وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا، وشممنا النساء والأولاد، قال: لو تكونون – أو قال: لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التى أنتم عليها عندى، لصافحتكم الملائكة بأكفهم، ولزارتكم فى بيوتكم، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كى يغفر لهم، قال: قلنا: يارسول الله: حدثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: لبنة ذهب ولبنة فضة، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه، وثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم، تحمل على الغمام، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب عز وجل: «وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين» (٣).

---

(١) رواه البخارى (٦/٣١٨) بدء الخلق، ورواه مسلم (١٧/١٧٥) الجنة وصفة نعيمها.

(٢) رواه أحمد فى المسند، جـ١٦، حديث رقم (٨٧٣٢) وإسناده صحيح.

(٣) رواه أحمد فى المسند، جـ١٥، حديث رقم (٨٠٣٠) وإسناده صحيح. والملاط: الطين الذى يجعل فى البناء، الأذفر: المراد طيب الرائحة.

قصر السيدة خديجة فى الجنة :

عن عائشة – رضى الله عنها – أن جبريل – عليه السلام – قال للنبى ﷺ : «هذه خديجة أقرئها السلام من ربها؛ وأمره أن يبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب» (١).

قصر عمر بن الخطاب فى الجنة :

عن أنس – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ قال: «أدخلت الجنة فإذا أنا بقصر من ذهب فقلت لمن هذا القصر؟ قالوا: لشاب من قريش فظننت أنى أنا هو، فقلت ومن هو؟ قالوا: لعمر بن الخطاب» (٢).

طعام أهل الجنة :

عن جابر – رضى الله عنه – سمعت النبى ﷺ يقول: «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون قالوا فما بال الطعام قال جشاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس» (٣).

وأما عن أصناف الطعام فيقول الله تعالى: ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة: ٢٠ ، ٢١].

وأما عن الفاكهة فقد قال الله تعالى: ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: ٣٣].

ويقول تعالى: ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ [البقرة: ٢٥].

---

(١) رواه البخارى (٧/١٣٣) مناقب الأنصار، ومسلم (١٥/١٩٩) الفضائل، ومعنى: الصخب: الصوت المختلط المرتفع، النصب: المشقة والتعب، والقصب: اللؤلؤة.

(٢) رواه البخارى (٦/٣١٨) بدء الخلق.

(٣) رواه مسلم، جـ ١٧ ، كتاب صفة الجنة ونعيمها.

ويقـول تعـالى : ﴿ وَدَانِيَـةً عَلَيْـهِمْ ظِلالُهَـا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُـهَـا تَذْلِيـلاً ﴾ [الإنسان : ١٤].

أى أن ثمارها تكون متدلية حتى يتناولها من يريد.

وعن ثوبان - مولى رسول الله ﷺ قال : « كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاءه حبر من أحبار اليهود فذكر أسئلة إلى أن قال : فمن أول إجازة؟ يعنى على الصراط فقال : فقراء المهاجرين، قال اليهودى : فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال : « زيادة كبد الحوت » قال : فما غذاؤهم على أثرها؟ قال : ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل فى أطرافها » قال : فما شرابهم عليه؟ قا : « من عين فيها تسمى سلسبيلاً » فقال صدقت »[1].

شراب أهل الجنة :

يقول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً** ﴾ [الإنسان : ٥ ، ٦].

ويقول تعالى : ﴿ **وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً** ﴾ [الإنسان : ١٧].

وقال تعالى : ﴿ **وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُوراً** ﴾ [الإنسان : ٢١].

ويقول تعالى : ﴿ **خِتَامُهُ مِسْكٌ** ﴾ [المطففين : ٢٦].

يقول أبو الدرداء - رضى الله عنه - هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم، لو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها.

ويقول الله تعالى : ﴿ **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ** ﴾ [محمد : ١٥].

---

(١) رواه مسلم (٣/٢٢٦ ، ٢٢٧) الحيض، ومعنى قوله : « زيادة كبد الحوت » : الزيادة هى طرف الكبد وهو أطيبها.

ثياب أهل الجنة :

يقول الله تعالى : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [فاطر: ٣٣].

ويقول تعالى : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ ﴾ [الكهف: ٣١].

والسندس هو الرقيق من الحرير، والإستبراق هو الحرير السميك، وقد أهدى لرسول الله ﷺ ثوب حرير فجعلوا يعجبون من لينه فقال رسول الله ﷺ :

« تعجبون من هذا؟ لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن من هذا » (١).

ويقول ﷺ : « من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس ولا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه » (٢).

صفة أهل الجنة :

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على صورة أشد كوكب درى فى السماء إضاءة، لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يتمخطون، ولا يتفلون؛ أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة، أزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً فى السماء » (٣).

وأما عن أخلاقهم، فقال تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٧].

---

(١) رواه البخارى (٦/٣١٩) بدء الخلق.

(٢) رواه مسلم (١٧/١٧٤) الجنة وصفة نعيمها وأهلها، أحمد فى المسند (١٨/٩٢٦٨).

(٣) رواه البخارى (٦/٣١٩) بدء الخلق، ورواه مسلم (١٧/١٧٢) الجنة وصفة نعيمها.

ويقول ﷺ: «لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجل واحد يسبحون الله بكرة وعشية» (١).

وعن معاذ بن جبل – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ قال: «يدخل أهل الجنة جرداً مرداً كأنهم مكحول أبناء ثلاث وثلاثين» (٢).

أدنى أهل الجنة منزلة:

عن المغيرة بن شعبة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال: «إن موسى عليه السلام سأل ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ فقال: رجل قد يجىء بعد ما دخل أهل الجنة الجنة فيقال له: ادخل الجنة فيقول: رب كيف وقد نزلت الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول له: لك ذلك ومثله ومثله ومثله، فقال فى الخامسة: رضيت رب، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك فيقول: رضيت رب، قال: رب فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت غرس كرامتهم بيدى وختمت عليها فلم ترعين ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر» (٣).

آخر أهل الجنة دخولاً الجنة:

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «...... ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ويبقى رجل بين الجنة والنار وهو آخر أهل النار دخولاً الجنة مقبل بوجهه قِبَل النار. فيقول: يارب اصرف وجهى عن النار قد قشبنى ريحها وأحرقنى ذكاؤها فيقول: هل عسيتَ إن فُعِلَ ذلك بك أن تسأل غير ذلك؟ فيقول: لا وعزتك فيعطى الله ما يشاء من عهد وميثاق فيصرف الله

---

(١) رواه البخارى (٦/١٣٨) بدء الخلق، ورواه مسلم (١٧/١٧٣).

(٢) رواه الترمذى (١٠/١٤) صفة الجنة، وقال: حسن غريب. ومعنى: جرداً: بدون شعر على أجسادهم، ومعنى مرداً: بدون لحية.

(٣) رواه البخارى – مختصراً – (١١/٤١٩) الرقاق، ومسلم (٢/٤٥، ٤٦) الإيمان.

وجهه عن النار فإذا أقبل به على الجنة رأى بهجتها سكت ما شاء الله أن يسكت ثم قال: يارب قدمنى عند باب الجنة فيقول الله له: أليس قد أعطيت العهود والميثاق أن لا تسأل غير الذى كنت سألت؟! فيقول: يارب لا أكون أشقى خلقك فيقول: فما عسيت إن أعطيت ذلك أن لا تسأل غيره، فيقول: لا وعزتك لا أسأل غير ذلك فيعطى ربه ما شاء من عهد وميثاق فيقدمه إلى باب الجنة فإذا بلغ بابها فرأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور فيسكت ما شاء الله أن يسكت فيقول يارب أدخلنى الجنة فيقول الله: ويحك يا ابن آدم ما أغدرك؟! أليس قد أعطيت العهود والميثاق أن لا تسأل غير الذى أعطيت؟ فيقول: يارب لا تجعلنى أشقى خلقك. فيضحك الله عز وجل منه ثم يأذن له فى دخول الجنة فيقول: تمنّ، فيتمنىً حتى إذا انقطع أمنيته قال الله عز وجل: من كذا وكذا. أقبل يذكره ربه حتى إذا انتهت به الأمانى، قال الله تعالى: لك ذلك ومثله معه» (١).

نساء الجنة:

يقول الله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥].

والأزواج في الجنة مطهرة من الحيض والبول والنفاس، والغائط، والمخاط، والبصاق، وكل قذر وكل أذى يكون من نساء الدنيا، ومطهرة كذلك من الأخلاق السيئة المذمومة.

ويقول تعالى: ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ [الدخان: ٥٤].

والحور العين: نساء حسان جميلات، بيض الوجوه والأجساد، سود العيون، يحار فيهن الطرف من رقة الجلد وصفاء اللون.

ويقول تعالى: ﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾ [ص: ٥٢].

---

(١) جزء من حديث رواه البخارى (جـ ١ ص ٢٠٤)، ومسلم (جـ ١ ص ١٦٣)، وأحمد فى المسند (جـ ١٤/ ٧٧٠٣).

فهن قاصرات الطرف على أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهم، ومستويات السن والميلاد فهن بنات ثلاث وثلاثين سنة.

وعن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ولقاب قوس أحدكم أو موضع قيده - يعنى سوطه - من الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينها ريحاً ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»(١).

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر والتى تليها على أضواء كوكب درى فى السماء ولكل امرىء منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم وما فى الجنة أعزب» (٢).

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أنه قال: ذكر الشهيد عند النبى ﷺ فقال: «لا تجف الأرض من دم الشهيد حتى يبتدره زوجتاه، كأنهما ظئران أظلتا - أو أضلتا - فصيليهما ببراح من الأرض، بيد كل واحدة منهما حلة خير من الدنيا وما فيها» (٣).

وعن علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - أنه سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

قال: قلت: يارسول الله ما الوفد إلا ركب؟ قال النبى ﷺ: «والذى نفسى بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض، لها أجنحة، عليها رحال الذهب، شرك نعالهم نور يتلألأ. كل خطوة منها مثل مد البصر، وينتهون إلى باب الجنة، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، وإذا شجرة على باب

(١) رواه البخارى (٦/١٥) الجهاد، والترمذى (٨/١٥٥) الجهاد. والنصيف: هو الخمار أى غطاء الرأس.

(٢) رواه البخارى (٦/٣١٩) بدء الخلق، مسلم (١٧/١٧٢ - ١٧٣) الجنة وصفة نعيمها.

(٣) رواه أحمد فى المسند (جـ١٥/٧٩٤٢)، وابن ماجه (٢٧٩٨).

، الجنة ينبع من أصلها عينان، فإذا شربوا من أحدهما جرت فى وجوههم بنضرة النعيم، وإذا توضئوا من الأخرى لم تشعث أشعارهم أبداً فيضربون الحلقة بالصفيحة، فلو سمعت طنين الحلقة بأعلى فيبلغ كل حوراء، أن زوجها قد أقبل فتستخفها العجلة، فتبعث قيمها، فيفتح له الباب، فلولا أن الله عز وجل عرفه نفسه لخر له ساجداً مما يرى من النور والبهاء، فيقول: أنا قيمك الذى وكلت بأمرك، فيتبعه فيقفوا أثره، فيأتى زوجته فتستخفها العجلة، فتخرج من الخيمة فتعانقه، وتقول: أنت حبى وأنا حبك، وأنا الراضية فلا أسخط أبداً، وأنا الناعمة فلا أباس أبداً، وأنا الخالدة فلا أظعن أبداً. فيدخل بيتاً من أساسه إلى سقفه مائة ألف ذراع، مبنى على جندل اللؤلؤ والياقوت، طرائق حمر، وطرائق خضر، وطرائق صفر، ما منها طريقة تشاكل صاحبتها، فيأتى الأريكة فإذا عليها سرير، على السرير سبعون فراشاً، على كل فراش سبعون زوجة، على كل زوجة سبعون حلة، يرى مخ ساقيها من باطن الحلل، يقضى جماعهن فى مقدار ليلة، تجرى من تحتهم أنهار مطردة، أنهار من ماء غير آسن صاف ليس فيه كدر، وأنهار من عسل مصفى لم يخرج من بطون النحل، وأنهار من خمر لذة للشاربين لم تعصره الرجال بأقدامها، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، لم يخرج من بطون الماشية، فإذا اشتهوا الطعام جاءتهم طير بيض فترجع أجنحتها فيأكلون من جنوبها، من أى الألوان شاءوا، إن شاء قائماً، وإن شاء متكئاً: وذلك قوله: ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ [الرحمن: ٥٤]. وبين أيديهم خدم كاللؤلؤ» (١).

النظر إلى وجه الله عز وجل :

يقول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]

ويقول تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦].

---

(١) أورده الشيخ عبد الحميد كشك «فى رحاب التفسير» جـ١٧ ص ٢٥٤٧ : ٢٥٤٨ وعزاه لابن أبى الدنيا.

فالحسنى هى الجنة، والزيادة هى النظر إلى وجه الله عز وجل.

وعن صهيب - رضى الله عنه - قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناديا يا أهل الجنة: إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه. قالوا: ما هذا الموعد؟ ألم يثقل موازيننا؟ ويبيض وجوهنا؟ ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ قال: فيرفع الحجاب وينظرون إلى وجه الله عز وجل فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إليه» (١).

صنفا أهل الجنة :

أصحاب الجنة فريقان كبيران: هما السابقون المقربون. وأصحاب اليمين، ولكل منهما نعيم.

الفريق الأول: «السابقون» :

يقول الله تعالى فيهم: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَا أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦ - ٦١].

ويقول تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ * عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ *

(١) رواه مسلم (٣/١٧) الإيمان.

وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا * إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا ﴾ [الواقعة: ١٠ – ٢٦].

والراجح من الأقوال أن الأولين والآخرين – من السابقين – هم من أمة محمد ﷺ، فالأولون من صدر هذه الأمة، والآخرون من متأخريها وأول نعيم لهم فى الجنة نعيم القرب من الله، وهذه أفضل نعمة وأجل منة من الله تعالى عليهم.

الفريق الثانى: «أصحاب اليمين»:

ويقول الله تعالى فيهم: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَامَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٦٢ – ٧٨].

ويقول تعالى: ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لأَصْحَابِ الْيَمِينِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾[١] [الواقعة: ٢٧ – ٤٠].

* * *

---

(١) والسدر المخضود هو شجر النبق المنزوع شوكه، والطلح المنضود: شجر من أشجار الحجاز فيه شوك، ولكنه هنا معد للتناول بلا كد ولا مشقة. والعرب الأتراب: متحببات إلى أزواجهن، متوافيات السن والشباب.

عـذاب النــار

النار هى دار العذاب والعقاب، أعدها الله للكافرين والعصاة، لها سبعة أبواب لكل باب جزء مقسوم، والعذاب فيها مختلف الأنواع، والأقسام، وهى موجودة الآن باقية لا تفنى، والكفار فيها مخلدون.

يقول تعالى: ﴿ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر: ٣٦]

يقول تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر: ٤٣، ٤٤].

فالباب الأول: يسمى جهنم لأنه يتجهم فى وجوه الرجال والنساء فيأكل لحومهم وهو أهون عذاباً من غيره.

والباب الثانى: يقال له لظى نزاعة للشوى، تدعو من أدبر عن التوحيد وتولى عما جاء به محمد ﷺ.

والباب الثالث: يقال له «سقر» وإنما سمى سقر لأنه يأكل اللحم دون العظم.

والباب الرابع: يقال لها الحطمة، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴾ [الهمزة: ٥، ٦].

تحطم العظام، وتحرق الأفئدة، يقول الله تعالى: ﴿ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ﴾ [الهمزة: ٧].

تأخذه من قدميه وتطلع على فؤاده وترمى بشرر كالقصر، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ [المرسلات: ٣٢، ٣٣].

يعنى سوداً فتطلع الشرر إلى السماء ثم تنزل فتحرق وجوههم وأيديهم وأبدانهم فيبكون الدمع حتى ينفد، ثم يبكون الدماء، ثم يبكون القيح حتى ينفد القيح حتى لو أن السفن أرسلت تجرى فيما خرج من أعينهم لجرت.

والباب الخامس: يقال له الجحيم، وإنما سمى جحيماً لأنه عظيم الجمرة.

والباب السادس: يقال له السعير، وإنما سمى السعير لأنه يسعر.

والبا السابع: يقال له الهاوية، من وقع فيه لم يخرج منه أبداً.

عمق جهنم وشدة حرها:

عن عتبة بن غزوان عن النبى ﷺ قال: «إن الصخرة العظيمة، لتلقى من شفير جهنم فتهوى فيها سبعين عاماً ما تفضى إلى قرارها»[1].

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: كنا عند رسول الله ﷺ فسمعنا وجبة فقال النبى ﷺ: «أتدرون ما هذا؟ قلنا الله ورسوله أعلم، قال: هذا حجر أرسله الله فى جهنم منذ سبعين خريفاً فالآن حين انتهى إلى قعرها»[2].

ويقول ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع فيها رب العزة قدميه فيزوى بعضها إلى بعض وتقول قط قط وعزتك»[3].

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «ناركم هذه التى يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءًا من حر جهنم قالوا: والله إن كانت لكافية يارسول الله قال: فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلها مثل حرها»[4].

طعام أهل النار:

يقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦، ٧]. والضريع: نوع من الشوك.

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٢، ١٣]

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٧٤)، والترمذى (١٠/ ٤٥، ٤٦) صفة جهنم وصححه الألبانى.

(٢) رواه مسلم (١٧/ ١٧٩) كتاب الجنة. والوجبة: هى السقطة.

(٣) رواه البخارى (٨/ ٥٩٤) التفسير، مسلم (١٧/ ١٨٤) كتاب الجنة.

(٤) رواه البخارى (٦/ ٣٣٠) بدء الخلق، ومسلم (١٧/ ١٧٩) كتاب الجنة.

يقول ابن عباس – رضى الله عنهما – فى قوله تعالى: ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ﴾ شوك يأخذ بالحلق لا يدخل ولا يخرج.

ويقول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الواقعة: ٥١ – ٥٦].

فطعامهم الزقوم الذى وصفه الله تعالى: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٦٤ – ٦٨].

والشوب هو الخلط بين الزقوم المتناهى فى القذارة والمرارة والحميم المتناهى فى اللهب والحرارة.

ويقول ﷺ: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن يكون طعامه» (١).

ويقول تعالى: ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ [الحاقة: ٣٥، ٣٦].

قال ابن عباس: الغسلين: الدم والماء والصديد الذى يسيل من لحومهم.

شراب أهل النار:

يقول الله تعالى: ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم: ١٥ – ١٧].

---

(١) رواه الترمذى (١٠ / ٥٤) صفة جهنم، وقال حديث حسن صحيح، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع رقم (٥١٢٦).

فشرابهم الصديد الذى يسيل من الأجسام، يسقونه بعنف فيتجرعونه غصباً وكرهاً، ولا يكادون يسيغونه لقذارته ومرارته.

ويقول تعالى: ﴿ .... وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥].

والحميم هو الماء الحار المغلى بنار جهنم، الذى يقطع الأمعاء التى كانت تمتلىء كما تمتلىء أمعاء الأنعام!

كما قال تعالى: ﴿ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [الحج: ٢٠، ٢١].

ويقول تعالى: ﴿ ... إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩].

فهى نار ذات سرادق يحيط بالظالمين فلا سبيل إلى الهرب أو الإفلات، فإذا استغاثوا من الحريق والظمأ أغيثوا بماء كالزيت المغلى يشوى وجوههم!

ويقول تعالى: ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا * إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ: ٢٤ - ٢٦].

ملابس أهل النار:

يقول الله تعالى: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

أى أن ملابسهم من مادة سريعة الاشتعال بالنار، كريهة الرائحة؛ تطلى بهذه المادة أجسادهم حتى يعود ذلك الطلاء كالسرابيل.

ويقول تعالى: ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ [الحج: ١٩].

ومعنى قطعت : أى قدرت على أجسامهم .

فرش أهل النار :

فرش أهل النار من النار، ويلتحفون بالحفة من نار، يقول تعالى: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤١].

يقول تعالى: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ .... ﴾ [الزمر: ١٦].

بشاعة أهل النار :

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «ما بين منكبى الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع» (١).

وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «ضرس الكافر مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث» (٢)، وقال: «إن الكافر ليجر لسانه يوم القيامة وراءه قدر فرسخين» (٣).

دعوات أهل النار :

لأهل النار أربع دعوات، يجيبهم الله عز وجل فى ثلاثة فإذا كانت الرابعة لم يتكلموا بعدها أبداً.

الدعوة الأولى: يقولون: ﴿ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ [غافر: ١١].

فيجيبهم الله تعالى: ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ [غافر: ١٢].

---

(١) رواه مسلم (١٧ / ١٨٠) الجنة.

(٢) رواه مسلم (١٧ / ١٨٦) صفة الجنة، والترمذى (١٠ / ٤٧ ، ٤٨) صفة جهنم.

(٣) رواه أحمد فى المسند (جـ ٨ / ٥٦٧١) من حديث ابن عمر وإسناده صحيح ولفظه: «إن الكافر ليجر لسانه يوم القيامة وراءه قدر فرسخين يتوطؤه الناس» أى يدوسونه.

الدعوة الثانية : يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ [السجدة : ١٢]

فيجيبهم الله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم : ٤٤]

الدعوة الثالثة : يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [فاطر : ٣٧]

فيجيبهم الله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطرة : ٣٧].

الدعوة الرابعة : ثم يقولون : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠٦ ، ١٠٧].

فيجيبهم الله تعالى : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : ١٠٨].

فلا يتكلمون بعدها أبداً.

ذبح الموت بين الجنة والنار :

عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم ينادى مناد : يا أهل الجنة لا موت، يا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم »(١).

تحسر أهل النار على فوات مقعده فى الجنة :

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال النبى ﷺ : « لا يدخل أحد الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء، ليزداد شكراً، ولا يدخل النار أحد إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن، ليكون عليه حسرة »(٢).

---

(١) رواه البخارى (١١ / ٦٥٤٨) كتاب الرقاق.
(٢) رواه البخارى (١١ / ٦٥٦٩) كتاب الرقاق.

صنوف من العذاب فى النار :

١ – عذاب شارب الخمر :

عن أسماء بنت يزيد – رضى الله عنها – أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من شرب الخمر لم يرض الله عنه أربعين ليلة . . . فإن مات مات كافراً . . فإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال . قيل يارسول الله : وما طينة الخبال ؟ قال : صديد أهل النار »(١) .

٢ – عذاب مانع الزكاة :

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن رسول الله ﷺ قال : « ما من صاحب كنز لا يؤدى زكاته إلا مثّل له يوم القيامة شجاعاً أقرعَ له زبيبتان يأخذ بلهزمتيه فيقول أنا مالك أنا كنزك »(٢) .

وقرأ هذه الآية ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران : ١٨٠] .

٣ – عذاب المنتحر : (الذى يقتل نفسه)

يقول ﷺ : « من قتل نفسه بشىء عذب به فى نار جهنم » .

ويقول ﷺ : « من قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ بها فى بطنه في نار جهنم ، خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن شرب سماً فقتل نفسه فهو يتحساه فى نار جهنم ، خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تردى من جبل فقتل نفسه ، فهو يتردى فى نار جهنم ، خالداً مخلداً فيها أبداً »(٣) .

٤ – عذاب من يشرب فى آنية الذهب والفضة :

عن أم سلمة – زوج النبى ﷺ – أن رسول الله ﷺ قال : « الذى يشرب فى إناء الفضة إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم »(٤) .

---

(١) رواه أحمد وابن حبان .
(٢) رواه البخارى (١١ / ٥٣٧) الأيمان والنذور ، ومسلم (٢ / ١١٩) الإيمان .
(٣) رواه مسلم (٢ / ١١٨) الإيمان ، من حديث أبى هريرة – رضى الله عنه – .
(٤) رواه البخارى (١٠ / ٩٦) الأشربة .

٥ - عذاب من يأمر بالمعروف ولا يأتيه وينهى عن المنكر ويأتيه :

يقول رسول الله ﷺ : « يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتابه فى النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : أى فلان ما شأنك ؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه »[١] .

٦ - عذاب الذى يكتم العلم :

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « من سُئل عن علم فكتمه، أُلجم بلجام من نار يوم القيامة »[٢] .

*　*　*

---

(١) رواه البخارى (٦ / ٣٢٩) بدء الخلق، ومسلم (١٨ / ١١٨) الزهد .
(٢) رواه أحمد فى المسند (جـ ١٤ / ٧٥٦١) وإسناده صحيح .

حـوارات

١ - حوار بين أهل الجنة وأهل النار :

يقول تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٤٤] .

فبعد أن اطمأن أهل الجنة في الجنة إذا بهم يسخرون من الظالمين فيسألونهم «فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟»، فيأتي الجواب في كلمة واحدة «نعم» وانتهى الحوار .

ويأتي نداء آخر من أهل النار لأهل الجنة فيه الاستجداء والاستعطاف : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ فإذا بأهل الجنة يردون عليهم قائلين لهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٠] .

٢ - حوار أصحاب الأعراف مع أهل الجنة وأهل النار (*) :

يقول الله تعالى : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ [الأعراف : ٤٦]

ثم إذا بهم ينظرون فيرون رجالاً من كبار المجرمين الذين كانوا يصدون عن سبيل الله، فيتجهون إليهم بالتبكيت والتأنيب :

(*) نحن مع الرأى القائل بأن أصحاب الأعراف هم الدعاة والأنبياء الذين كانوا يدعون الناس إلى الله، وهذا ظاهر من أسلوب الحوار وتبكيت الكافرين وتأنيبهم، فليس هذا من شأن أناس تساوت حسناتهم بسيئاتهم، ولكنه أسلوب أناس طالما تحاوروا مع الظالمين فى الدنيا، وجادلوهم فها هم الآن يذكرونهم بالذى كان .

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُم قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٨ - ٤٩].

فها أنتم الآن فى النار، لا جمعكم نفعكم، ولا استكباركم أغنى عنكم ! بل إن الذين كنتم تقولون عنهم إنهم ضالون ! مفسدون ! منحرفون ! ها هم الآن فى الجنة.

٣ - حوار بين السابقين واللاحقين من أهل النار :

يقول تعالى : ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٧ - ٣٩].

ولقد كانت هذه الأمم، وهذه الفرق، يتبع آخرها أولها، ويوصى السابقون للاحقين، فها هم الآن فى النار، وقد تنكر الولى لمولاه، ولعن الابن أباه، فالذين كانوا أولياء صاروا أعداء! حتى إذا جمعهم الله تعالى جميعا فى النار بدأ الخصام يطلب التابعون مضاعفة العذاب للمتبوعين لأنهم هم الذين أضلوهم !! فإذا بالقادة المتبوعين يقولون لهم « فما كان لكم علينا من فضل » أى أنكم لستم أفضل منا حتى يخفف الله عنكم العذاب دوننا، فكنا في الكفر سواء.

٤ - حوار بين المستكبرين والمستضعفين من أهل النار :

يقول الله تعالى : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم: ٢١].

ويقول تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٧ – ٤٨].

فها هم الضعفاء الذين لم يكن لهم شخصية مستقلة فى الاعتقاد ولا فى التفكير، وجعلوا أنفسهم ذيولاً للمستكبرين المتجبرين الطغاة. ولكن ما الذى جعلهم هكذا ذيولاً؟! لا القوة المادية تستطيع أن تصنع الذيول، ولا قلة الجاه تجعل الإنسان ذيلاً، ولا قلة المال تسلب عن الشخص إرادته وحريته فلقد كان صحابة رسول الله ﷺ، منهم من كان ضعيفاً بدنياً، ومنهم من كان فقيراً مادياً، ورغم ذلك هم الذين واجهوا الطغاة وأزالوهم وخلوا بين الناس وخالقهم ليتحرروا من قيود العبودية لغير الله.

إذن فليست أعراض الحياة الدنيا هى السبب فى صنع هذه الذيول، وأما السبب الحقيقى فيقول عنه شهيد الإسلام – سيد قطب – رحمه الله:

«إن المستضعفين كثرة، والطواغيت قلة. فمن ذا الذى يخضع الكثرة للقلة؟ وماذا الذى يخضعها؟ إنما يخضعها ضعف الروح، وسقوط الهمة، وقلة النخوة، والتنازل الداخلى عن الكرامة التى وهبها الله لبنى الإنسان!

إن الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير. فهى دائماً قادرة على الوقوف لهم لو أرادت. فالإرادة هى التى تنقص هذه القطعان!

إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل فى نفوس الأذلاء.. وهذه القابلية هى وحدها التى يعتمد عليها الطغاة!!

والأذلاء هنا على مسرح الآخرة فى ضعفهم وتبعيتهم للذين استكبروا يسألونهم «إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء؟

وقد اتبعناكم فانتهينا إلى هذا المصير الأليم؟!

أم لعلهم وقد رأوا العذاب يهمون بتأنيب المستكبرين على قيادتهم لهم

هذه القيادة، وتعريضهم إياهم للعذاب؟ إن السياق يحكى قولهم وعليه طابع الذلة على كل حال!

ويرد الذين استكبروا على ذلك السؤال:

«قالوا: لو هدانا الله لهديناكم! سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص!»(١). انتهى.

وقد وصف لنا القرآن كيف أن كلا الفريقين – الرؤوس والذيول – يتبرأ من الآخرة.

يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾

[البقرة: ١٦٥ – ١٦٧]

براءة الشيطان من تابعيه:

يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فها هو الشيطان، بعد عداوته لهم، بعد إغرائه لهم، بعد تزيينه المعصية لهم، بعد صدهم عن الدعوة، بعد تجنيدهم له ليصدوا عن سبيل الله، بعد هذا كله يرجع يؤنبهم ويوبخهم على أن أطاعوه واستجابوا له!

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢٠٩٦

فهلا وعى اتباعه هذه الحقيقة من الآن ؟!

فهلا بدأوا هم بإعلان البراءة منه ؟!

* * *

حســـرات

١ - حسرة الظالمين:

يقول الله تعالى: ﴿ **يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً** ﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

فها هو الظالم يندم ويتحسر ويظهر أثر ذلك متمثلاً فى عضه على يديه، يقول ليتنى سلكت طريق الرسول.. ليتنى اتبعت منهجه.. ليتنى اقتفيت أثره... ليتنى اتبعت سنته... ليتنى حملت دعوته... ليتنى واليت أتباعه... ليتنى لم أتخذ صاحباً يصرفنى عن طريق الرسول، يزين لى مخالفة الرسول، يغوينى بمحاربة الرسول، يضمنى لأعداء الرسول، يفتن بى أتباع الرسول؛ لقد أضلنى هذا الصاحب بعد أن جاءنى الذكر... ورأيت النور... وكدت أن أقتبس عنه، وكدت أن أعيش فيه، وكدت أن أحمل مشعل النور، لولا أن خذلنى شيطان الإنس وشيطان الجن.

وهذا الموقف يصوره الله تعالى: ﴿ **يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا** ﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨].

فالله تعالى يقدم نداءه من الآن قبل فوات الأوان:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ * وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الزمر: ٥٣ – ٦١].

* * *

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع : ٩٦٧٩ / ٢٠٠١